وصايا ومواعظ

في ضوء الكتاب والسنة

تأليف الأستاذ الدكتور
محمد سالم محيسن
تخصص في القراءات وعلوم القرآن
عضو بلجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف
دكتوراه في الآداب العربية

دار محيسن
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار محيسن
للطباعة والنشر والتوزيع

٤٣ طريق النصر (الأوتوستراد)
وحدة رقم ١ عمارات امتداد رمسيس ٢
مدينة نصر - القاهرة - ت: ٢٦٣١٤١٢ (٢٠٢)
المطابع: مدينة العبور - المجمع الصناعى - وحدة ٢٠٥

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١١٢٦٠

الترقيم الدولى: 5-16-6076-977

عن أبى سعيد الخدرىّ - رضى الله عنه -: أنّ النبى ﷺ قال فى حَجّة الوداع:

«نضّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، ثلاث لايَغُلّ عليهنّ قلب امرئ مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنّ دعاء هم محيط من ورائهم» اهـ .

[رواه البزّار بإسناد حسن]

المؤلف

أ.د/ محمد محمد محمد سالم محيسن

غفر الله له ولوالديه وذريته والمسلمين

المدينة المنورة: الثلاثاء غرة رجب ١٤٠١هـ

الخامس من مايو ١٩٨١م

المقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل:

﴿ ومنْ أحْسنُ قوْلاً ممّن دعا إلى اللهِ وعمِل صالِحًا وقال إنّني من الْمُسْلِمين ﴾

[فصلت:٣٣]

والصلاة والسلام على نبينا «محمد» الذى صحّ عنه فى الحديث الذى رواه: أنس بن مالك (ت٩١هـ - رضى الله عنه): أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله راضٍ عنه»** اهـ.

[رواه ابن ماجه، والحاكم]

وبعد:

فهذا كتاب ضمنته بعض الوصايا والمواعظ رجاء أن يستفيد به المسلمون والمسلمات.

وقد جعلته تحت عنوان:

وصايا ومواعظ فى ضوء الكتاب والسنة

أسأل الله الحىّ القيوم ذا الجلال والإكرام أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعنى به يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلّ اللهمّ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

أ.د/ محمد سالم محيسن

غفر الله له ولوالديه آمين

منهج التأليف

ضمّنتُ كتابى هذا عدداً من الموضوعات العلمية فى ضوء الكتاب والسنّة.

أسأل الله الحىّ القيوم ذا الجلال والإكرام أن يشرح صدرى، ويعيننى على خدمة كتابه، وسنة نبيّه «محمد» ﷺ، إنه سميع مجيب.

وصلّ اللهمّ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الموضوع الأول

الوصايا الربانية والنبوية

وقد اخترت منها الوصايا الآتية:

الوصايا الربانية:

وهى التى جاءت فى القرآن: فمن ذلك الوصايا العشر التى جاءت فى سورة الأنعام فى ثلاث آيات اشتملت على الأمر بتوحيد الله - تعالى -، والبر بالوالدين، والنهى عن قتل الأولاد، وعدم ارتكاب الفواحش، وعدم قتل النفس التى حرم الله، والنهى عن أكل مال اليتيم، والأمر بإيفاء المكيال والميزان، والوفاء بالعهد، والأمر باتباع الصراط المستقيم.

وفى ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

ومن ذلك: الوصايا التى جاءت فى سورة الإسراء فى سبع عشرة آية اشتملت على الأمر بتوحيد الله - سبحانه وتعالى -، وعلى برّ الوالدين والإحسان إليهما، وعلى العطف على ذوى القربى، والمسكين، وابن السبيل، والنهى عن التبذير، والبخل، وقتل الأولاد خشية الفقر، والنهى عن الاقتراب من الزنا، والنهى عن قتل النفس، والنهى عن التعدّى على مال اليتيم، والحث على الوفاء بالعهد، والأمر بإيفاء الكيل والميزان.

وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا

﴿٢٥﴾ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ﴿٢٦﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴿٢٧﴾ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴿٢٨﴾ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴿٢٩﴾ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴿٣٠﴾ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴿٣١﴾ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴿٣٢﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ﴿٣٣﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴿٣٤﴾ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ﴿٣٥﴾ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴿٣٦﴾ ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴿٣٧﴾ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٢-٣٨].

ومن ذلك: الوصايا التى وجهها «لقمان» لابنه فى سبع آيات، وهى قول الله - تعالى -:

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١٣﴾ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴿١٤﴾ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴿١٥﴾ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴿١٦﴾ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴿١٧﴾ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴿١٨﴾ واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

- والله أعلم -

الوصايا النبوية:

وهى التى أوصى بها الرسول ﷺ صحابته (رضوان الله عليهم)، وأمته من بعده؛ لتكون منهجا لهم فى التربية، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، بل فى كل شأن من شئون الحياة. وقد وردت هذه الوصايا فى أحاديث كثيرة اقتبستُ منهما الأحاديث الآتية:

١ - عن العِرْباض بن سارية - رضى الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال:

«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإنْ عَبْدًا حَبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنّتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» اهـ[1].

٢- وعن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما- ت ٧٣هـ) قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبيّ فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.. اهـ[2].

٣- وعن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما- ت ٦٨هـ) قال: كنت خَلْف النبى ﷺ فقال: «ياغلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم بأنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يضرّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» اهـ[3].

٤- وعن سَهْل بن سعيد الساعدى -رضى الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال: يا رسول الله: دلنى على عمل إذا عملتُه أحبّنى الله، وأحبّنى الناس فقال: «ازهد فى الدنيا يحبّك الله، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس» اهـ[4].

(١) أخرجه أبوداود فى سننه برقم ٤٦٠٧، والترمذى فى كتاب العلم برقم ٢٦٧٨.
(٢) رواه البخارى برقم ٦٤١٦، والبيهقى فى السنن حـ٣/ ٣٦٩. (٣) رواه الترمذى فى السنن برقم/ ٢٥١٦.
(٤) رواه ابن ماجه برقم/ ٤١٠٢، والطبرانى فى المعجم الكبير برقم/ ٥٩٧٢.

٥- وعن أبى هريرة (رضى الله عنه- ت ٥٨هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره -ثلاث مرات-، بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه» اهـ(٢).

٦- وعن أبى ذرّ (رضى الله عنه- ت ٣٢هـ) عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربّه - عزّ وجلّ- قال: «يا عبادى كلكم ضالّ إلاّ من هديتُه فاستهدونى أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأناً أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضَرِّى فتضرّونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، ياعبادى لو أن أوّلكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» اهـ(٢).

-والله أعلم-

---

(١) رواه مسلم برقم/ ٢٥٧٧.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم/ ٢٥٦٤.

الموضوع الثانى

وصايا الصحابة - رضى الله عنهم -

الأولى: وصيَة أبى بكر الصدّيق لعمر ابن الخطاب -رضى الله عنهما -

حينما استخلفه عند حضور أجله، وقد جاء فيها:

إنّى مستخلفك من بعدى، وموصيك بتقوى الله، وإنّ لله عملا بالليل لايقبله بالنهار، وعملا بالنهار لايقبله بالليل، وإنه لايقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحقّ فى الدنيا، وثقله عليهم، وحُقّ لميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفّته عليهم، وحُق لميزان لايوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا.

إنّ الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإن ذكرتهم قلتَ: إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلتَ إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب؛ ليكون العبد راغبا راهبا، ولايتمنّى على الله غير الحقّ، ولايلقى بيده إلى التهلكة، فإذا حفظت وصيّتى فلا يكوننّ غائب أحبّ إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعتَ وصيّتى فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله... اهـ[1].

الثانية: وصية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى الأحنف بن قيس:

يا أحنف من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شىء عُرف به، ومن كثر كلامه كثر سَقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه... اهـ[2].

الثالثة: وصيّة علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه -:

أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله، ولزوم طاعته، وتقديم العمل، وترك الأمل؛ فإنه من فرّط فى عمله لم ينتفع بشىء من أمله، أين التعِب بالليل والنهار، والمقتحم للجج

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ جـ٢/ ٤٥.
(٢) انظر تاريخ عمر بن الخطاب تأليف أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى ط. دمشق ص٢٠٢.

البحـار، ومفاوز القفـار؟ يسير من وراء الجـبال، وعالج الرِّمـال، يَصِل الغدوَّ بالرواح، والمساء بالصباح، فى طلب محقرات الأرباح، هجمت عليه منيته، فعظمت بنفسه رزيّته، فصار ما جمع بورا، وما اكتسب غرورا، ووافى القيامة محسورا. . . اهـ(١).

الرابعة: وصية علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه- بالخمس المنجّيات:

أيها الناس احـفظوا عنّى خمسًا، فلو شـددتم إليها المطايا حتّى تُنْضـوها لم تظفروا بمثلها: ألا لا يَرْجونّ أحدكم إلا ربه، ولا يخـافنّ إلا ذنبه، ولا يستحى أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ألا وإنّ الخامسة الصبر: فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ومن لاصبر له لا إيمان له، ومن لارأس له لا جسد له.

ولاخير فى قراءة إلا بتدبّر، ولا فى عبادة إلا بتفكر، ولا فى حلم إلا بعلم.

ألا أنبـئكم بالعالم كلّ العلْم؛ مـن لم يزيّن لعباد الله معـاصى الله، ولم يؤمّنهم مكره، ولم يؤيسهم من روحـه، ولا تنزلوا المطيعين الجنة، ولا المذنبـين الموحدين النار، حتى يقضى الله فيهم بأمره.

لاتأمنوا على خير هذه الأمَّة عذاب الله؛ فإنه يقول: ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ولاتقنطوا على شرّ هذه الأمّة من رحمة الله؛ فإنه يقول: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ اهـ(٢) [يوسف: ٨٧].

الخامسة: وصية عمير بن حبيب الأنصارى - رضى الله عنه- لبنيه:

إذْ قال لهم: يابنىّ إياكم ومخـالطة السّفهاء؛ فإنّ مجـالستهم داء، ومن يحلم على السّفيـه يسرّ بحلمه، ومن يجبـه يندم، ومن لايفرّ بقليل ما يأتى به السّفـيه يفرّ بالكثير. وإذا أراد أحـدكم أن يأمر بالمعروف، أو ينهى عن المنكر؛ فليـوّطن نفسه قبل ذلك على الأذى، وليوقن بالثواب من الله - عزّ وجلّ -، فإنه من يوقن بالثواب من الله -عزّ وجلّ- لايجد مسّ الأذى. . . اهـ(٣).

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٤/ ٦٧.

(٢، ٣) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٤/ ٨٠-٨١.

السادسة: وصيّة على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لأولاده:

بعدْ أن اعتــدى عليه ابن ملْجم؛ فدعا الحـسن، والحسين، ومحــمدًا، وقال لهم: أوصيكم بتــقوى الله، وأن لاتبغيا الــدنيا وإن بغتكما، ولاتبكيــا على شىء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثــا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا، واعملا بما فى الكتاب، ولاتأخذكما فى الله لومة لائم[1].

ثمّ خصّ علىٌّ -رضى الله عنه- ابنه محمداً بطاعة أخــويه، وتوقيرهما فقال له: هل حفظتَ ما أوصيتُ به أخــويك؟ قال: نعم. قال: فإنى أوصيك بمثله، وأوصــيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، فاتّبع أمرهما، ولا تقطع أمرًا دونهما. . . اهـ[2].

ثمّ أوصى الحسن، والحسين بأخيــهما محمد خيراً فقال لهــما: أوصيكما به فإنه ابن أبيكما، وقد علمتما أنّ أباكما يحبّه فأحبّاه. . . اهـ[3].

ثم قال للحسن: أوصــيك أى بُنىَّ بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتــها، وإيتاء الزكاة عند محلّها، وحسن الوضوء؛ فإنه لاصــلاة إلا بطهور، ولاتقبل صلاة من مانع زكاة، وأوصيك بغفَر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرّحم، والحلْم عند الجهل، والتفقّه فى الدين، والتثبت فى الأمر، والتعاهد للقــرآن، وحسن الجوار، والأمر بالــمعروف، والنهى عن المنكر، واجتناب الفواحش. . . اهـ[4].

السابعة: وصيّة علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- لكميل بن زياد النخعىّ:

إذْ يقول كميل: أخذ عــلىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - بيدى، فأخرجنى إلى ناحية (الجبّانة)[5]. فلمّا أصحرنا جلس ثم تنفــس، ثم قال: يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخــيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعــالم ربّانى، ومتعلّم على سبــيل النجاة، وهمج رعاع أتبــاع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يســتضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

العلم خــير من المــال: العلم يحــرسك وأنت تحرس الــمال، العلم يزكــو على العمل، والمال تنقصه النفقة. ومحبّة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وصنيعة المال تزول بزواله.

---

(1) انظر: أسد الغابة حـ٤/ ٢٩٠-رقم الترجمة/٣ ٤٠٦٣، وانظر: الإصابة حـ٤/ ٧١٥- رقم الترجمة/ ٦٠٣٣

(٢ : ٤) انظر: تاريخ الطبرى حـ٥/ ١٤٧، انظر: الكامل لابن الأثير حـ٣/ ١٩٦.

(٥) الجبّانة: الصحراء التى بها المقابر.

مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدّهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة. . . اهـ[١].

الثامنة: وصية معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فى الحث على طلب العلم والاستزادة منه:

إذْ قال: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لايعلم صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنّة، والأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضرّاء، والسلام على الأعداء، والدين عند الأجلاّء، يرفع الله به أقواما ويجعلهم فى الخير قادة، وأئمّة تقتبس آثارهم، ويُقتدى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم.

ترغب الملائكة فى خُلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتّى الحيتان فى البحر وهوامّه، وسباع الطير وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا فى الدنيا والآخرة، والتفكير فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، يُلْهَمُه السعداء، ويُحْرمه الأشقياء. . . اهـ[٢].

التاسعة: وصيّة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ليزيد بن أبى سفيان - رضى الله عنه -[٣] حينما أرسله فاتحا للشام:

قال ابن الأثير:[٤] أمر أبو بكر - رضى الله عنه - ليزيد بن أبى سفيان حينما بعثه إلى الشام سنة ١٣ هـ وأوصاه وغيره من الأمراء، فكان ممّا قال لـ يزيد: إنّى قد ولّيتك لأبلوك، وأجرِّبك، وأخرجك، فإن أحسنتَ رددتك إلى عملك، وإن أسأت عزلتك. فعليك بتقوى الله، فإنه يُرى من باطنك مثل الذى يُرى من ظاهرك، وإنّ أولى الناس

(١) انظر: حلية الأولياء لأبى نعيم حـ١/ ٧٩- ٨٠.
(٢) انظر: حلية الأولياء لأبى نعيم حـ١/ ٢٣٩.
(٣) من بنى أمية، أسلم يوم فتح مكة، استعمله النبىُّ ﷺ على صدقات (بنى فراس)، وكانوا أخواله.
(٤) هو أبو الحسن على بن محمد الشيبانى ت ٦٣٠هـ.

بالله أشدّهم تولّيا له، وأقرب الناس من الله أشدّهم تقـرّبا إليه بعمله. وقد ولّيتك عمل خالد بن سعـيد بن العاص[١] فإيّاك وعُبِّيَّـة الجاهلية[٢]؛ فإن الله يبغضـها، ويبغض أهلها. وإذا قدمْت على جُندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إيّاه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإنّ كثيـر الكلامِ ينسى بعضه بعضا، وأصلح نفسك، يصلح الله لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها.

وإذا قدم عليك رسل عدوّك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، وأنزلهم فى ثروة عسكرك[٣]، وامنع مَنْ قِبَلك من مـجادلتهم، وكن أنت المتـولّى لكلامهم، ولاتجـعل سرّك لعلانيـتك، فيختـلط أمرك، وإذا استشـرت فاصْدق الحديث تصـدق المشورة، واسمُرْ بالليل فـى أصحابك تأتك الأخبـار وتنكشف عندك الأستار، وأكثـر حرسك، وبدِّدهم فى عسكرك، وأكـثر مفاجأتهم فى محارسهم[٤] بغير علم منهم بك: فمن وجـدته غفل عن مَحْرسه فأحـسن أدبه وعاقبه فى غـير إفراط، وعقب بينهـم بالليل، واجعل النّوْبة الأولى أطول من الأخـيرة، فـإنهـا أيسرهـما لقـربهـا من النهار، ولاتـخفْ من عقـوبة المستـحق، ولاتسرع إليها، ولاتغفل عـن أهل عسكرك فتفسـدهم، ولاتتجسّس عليـهم فتـفـضحـهم، ولاتكشف للناس عـن أسرارهم، واكـتف بعـلانيتـهم، ولاتجالس العبّاثين، وجالس أهل الصـدق والوفاء، واصدق فى اللقاء، ولاتجبن فيجـبن الناس، واجتنب الغلول[٥]؛ فإنّه يقـرب الفقر، ويـدفع النصر، وستـجد أقواما حبسوا أنفسهم فى الصّوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له... اهـ[٦].

العاشرة: وصيّة العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - لولده عبد الله - رضى الله عنه -:

قال عبـد الله بن عباس: قال لى أبى: أرى هذا الرجُل - يعنى عـمر بن الخطاب - يستفهمك، ويقدمك على الأكابر من أصحاب نبينا محمد ﷺ، وإنى موصيك بخلال

(١) الذى عزله أبو بكر عن قيادة جيش الشام.
(٢) أى: فخرها، وخيلاؤها.
(٣) أى: فى الكثرة ذات العدّة حتّى تروِّعهم قوتك.
(٤) أى: موقع الحراسة.
(٥) أى: الغدر والخيانة.
(٦) انظر: الكامل لابن الأثير حـ٢/ ٢٧٦-٢٧٧.

أربع : لا تفشين له سراً ، ولا يجربن عليك كذبا ، ولا تطوِ عنه نصيحة ، ولا تغتابن عنده أحدا . قال عامر بن شراحيل الشعبى (ت١٠٣هـ) : فقلت لابن عباس : كلّ واحدة خير من ألف ، قال : أىْ والله ومن عشرة آلاف . . . اهـ[١] .

الحادية عشرة: وصيّة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - فى الحثّ على طلب العلم:

إذْ قال : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ الناس يفطرون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخلّطون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون .

وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونا ، حكيما حليما عليما سكيتا ، وينبغى لحامل القرآن ألا يكون جافيا ، ولا غافلا ، ولا صخّابا ، ولا صيّاحا . . . اهـ[٢] .

الثانية عشرة: وصيّة الخنساء - رضى الله عنها - فى حثّ أولادها على الجهاد:

قالت - رضى الله عنها - : تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدار الفانية .

يقول الله - عزّ وجلّ - :

﴿ يا أيُّها الّذين آمنُوا اصبرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا واتّقُوا الله لعلّكُم تُفلحُون ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

فإذا أصبحتم غداً فاغدوا على قتال عدوّكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنفرين ، . فلمّا بلغها خبر استشهادهم قالت: الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ رحمته . . . اهـ[٣] .

- والله أعلم -

---

(١) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ١/ ٩-١٠ .

(٢) انظر : حلية الأولياء جـ١/ ١٣٠ .

(٣) انظر : خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب تأليف عبد القادر بن عمر البغدادىّ جـ١/ ٣٩٦ .

الموضوع الثالث

وصايا العصر الجاهلى

الأولى: وصيّة مَرْثد الخير لرجلين من قومه:

قال أبو على القالى: كان مَرْثد الخير بن يَنْكَف بن معد يكرب حَدِبًا على عشيرته محبّا لصلاحهم، وكان سُبَيْع بن الحارث أخو علَس، ومَيْثم بن مثوب بن ذى رُعَيْن تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وخِيف أن يقع بين حَيَيْهما شرّ فيتفانى حذْمَاهما. فبعث إليهما مَرْثد الخير فأحضرهما ليصلح بينهما فقال لهما: إنّ التخبُّط[١]، وامتطاء الهجاج[٢]، واستحقاب اللجاج[٣]، سيقفكما على شفا هوة، وفى توردّها[٤] بوار الأصيلة[٥]، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد[٦]، وانحلال العقْد، وتشتت الألفة وتباين السُّهمة[٧]، وأنتما فى فُسْحة رافهة[٨]، وقَدَم واطِدَة[٩]، والمودّة مُثرية[١٠]، والبُقيا معرضة[١١]، فقد عرفتما أنْباء من كان قبلكما من العرب ممّن عصى النّصيح، وخالف الرّشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتما ما آلت إليه عواقب سوء سَعْيهم، وكيف كان صيَّور أمرهم، فتلافيا القُرْحة قبل تفاقم الثأى[١٢]، واستفحال الدار، وإعْواز الدّواء، فإنه إذا سُفكت الدماء، استُحْكمت الشحْناء، وإذا استُحْكمت الشحْناء تقضّبت عُرَى الإبقاء[١٣] وشمل البلاء، فقال سُبَيْع: أيها الملك إنّ عداوة بنى العلاّت[١٤] لاتبرئها الأُساة[١٥] ولاتشفيها الرّقاة، ولاتستقل بها الكُفاة؛ والحسد الكامن: هو الداء الباطن وقد علم بنو أبينا هؤلاء أنّ لهم رِدءا[١٦] إذا رهبوا، وغيثا إذا أجدبوا، وعضُدا إذا حاربوا، ومَفزعًا إذا بكوا. فقال ميثم: أيها الملك إنّ مَن نَفَس على ابن أبيه الزّعامة، وجَدبه فى المقامة[١٧]، واستكثر له قليل الكرامة، كان قرِفًا

---

(١) وهو: ركوب الإنسان رأسه فى الشرّ على غير هدى.

(٢) وهو: اعتساف الأمر، واللجاجة فى الشيء.

(٣) الحقاب: هو الخيط الذى تشدّ به المرأة وسطها، وهذا مَثَل: أراد أنه احتزم باللجاج، أوجعله فى وعائه.

(٤) التورّد: هو الإشراف على مورد الماء.

(٥) أى: هلاك الأصيلة.

(٦) أى: انتقاضه.

(٧) السهْمة: القرابة، وتباينها: انقطاعها.

(٨) أى: ناعمة من الرفاهية.

(٩) القدم الواطدة: الثابتة.

(١٠) أى: متصلة.

(١١) أى: ممكنة فقد أمكنت من عرضها أى: جنبها وناحيتها.

(١٢) أى: فساد الجرح.

(١٣) أى: تقطعت.

(١٤) وهم بنو أمّهات شتى من رجل واحد.

(١٥) الأساة: جمع آس وهو الطبيب.

(١٦) الردْء: العون.

(١٧) جَدَبه: بمعنى عابه.

بالملامة[١]، ومؤنَّبـا على ترك الاستقامـة، وإنا والله ما نعتدّ لهم بيـد إلا وقد نالهم منا كِفَاؤها، ولانذكرلهم حسنة إلا وقد تطلّع منّا إليهم جزاؤها، ولايتفيّأ لهم علينا ظِلّ نعمة إلا وقد قوبلوا بشرواها[٢]، ونحن بنو فحْل مُقْرَم[٣]، لم تقعد بنا الأمّهات ولابهم، ولم تنزنا أعراق السوء، ولا إيّاهم، فعلام مَطّ الخدود[٤]، وخَرْز العيون[٥]، والجَخيف[٦]، والتصعرّ؟ ومقاطع الأمور ثلاثة: حرْب مُبيرة[٧]، أوسَلْم قريرة، أو مداجاة وغفيرة[٨]، فـقال الملك: لا تُنْـشِطوا عُقُل الشّـوارد[٩]، ولاتُلقـحـوا العُون الـقواعـد[١٠]، ولا تؤرثوا[١١] نيران الأحـقاد، ففيـها المتلفـة المستأصلة، والجـائحة[١٢]، والألية[١٣]، وعفّوا بالحلم أبلاد[١٤]، وأنيبُوا إلى السبيل الأرشد، والمنهج الأقصد... اهـ[١٥].

الثانية: وصيّة أكثم بن صيفى للحارث بن أبى شمر الغسانىّ:

قال أبو حاتم السجستاني: كتب الحارث بن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام إلى أكثم بن صيفي بن رباح: أنّ هرقل نزل بنا، وقامت خطباء غسّان بأمر حسن. فعجب من رأيهم وأحلامهـم، وأعجبنى ما رأيتُ منهم فـفخرت بهم عليه. فـقال: هذا أدبى، فإن جهلتَ ذلك فانظر بجزيرة العرب مثل هؤلاء حكمة، وعقولا، وألسنة. فكتب إليه أكثم بن صيفى: إنّ المروءة أن تـكون عالما كجاهل، وناطقا كعَـيىّ، والعلم مَرْشَدة، وترك ادعائه ينفى الحسـد، والصمت يكسب المحبة، وفضل القـول على الفعل لؤم، وفضل الفعل على القول مكرمة، ولم يُلَزُّ الكذب بشىء إلا غلب عليه، وشر الخصال الكذب، والصديق مسـمًّى من الصدق، والقلب يُتَّهم وإن صدق اللسـان، والانقباض من الناس مكسبة للعداوة، والتقرُّب من الناس مجلبة لجليس السوء. فكن من الناس بين المنقبض

(١) أى: كان خليقا بها.
(٢) أى: بمثلها.
(٣) المُقرم: هو السيّد الزعيم فى قومه.
(٤) مَطّ الخدود: أى: مدّها استغرابا.
(٥) هو أن ينظر الإنسان إلى غيره من مؤخرة عينه استكراها له، أو استهزاء.
(٦) الجَخيف: هو التكبر.
(٧) الحرب المبيرة: أى المهلكة.
(٨) المداجاة والغفيرة: أى المساترة والغفران.
(٩) العُقُل: جمع عقال: وهو الحبْل كناية عن التهيؤ للحرب.
(١٠) هذا مَثَل وأصله فى الإبل يقال لقحت الناقة: إذا حملت، والكلام هنا كناية عن الحرب إذا ابتدأت.
(١١) بمعنى: تذكوا وتشعلوا.
(١٢) الجائحة: الاستئصال.
(١٣) الأليّة: الثكْل.
(١٤) الأبلاد: جمع بَلَد: وهو الأثر من الشىء.
(١٥) انظر الأمالى لأبى على القالى جـ١/ ٩٢-٩٣، وجمهرة خطب العرب جـ١/ ١٠-١٣

والمسترسل، وخير الأمور أوسطها، وأفضل القرناء المرأة الصالحة، وعند الخوف حَسُن العمل، ومن لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من علمه زاجر، ومن أهمل نفسه أمكن عدوه على أسوأ عمله، وأول الغيظ الوَهَن... اهـ[١].

الثالثة: وصيّة أكثم بن صيفى لبنيه:

قال أبو حاتم السجستانى: قالوا: جمع أكثم بن صيفي (بنيه)، فقال: يابنيَّ قد أتت عليَّ مائتا سنة، وإنى مزوّدكم من نفسى: عليكم بالبر فإنه ينمى العدد، وكفوا ألسنتكم؛ فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن قول الحق لم يدع لى صديقا، وإنه لاينفع من الجزع التبكّي، ولا ممّا هو واقع التوقّي. وفى طلب المعالى يكون الغَرَر، والاقتصاد فى السعْى أبقى للجمال، ومن لا يأسى على ما فاته ودّع بَدنه، ومن قَنع بما هو فيه قرّت عينه، التقدّم قبل التندّم لأن أصْبح عند رأس الأمر أحبّ إلىّ من أن أصبح عند ذنبه، لم يَصْلك من مالك ما وعظك، ويلٌ لعالم أمْر من جاهله. الوحْشة ذهاب الأعلام، ويتشابَهُ بِه الأمر إذا أقبل، فإذا أدْبر عرفه الأحمق والكيّس، البطر عند الرّخاء حُمْق، والجزع عند النازلة آفة التجمّل، ولاتغضبوا من اليسير؛ فإنه يجنى الكثير، لاتجيبوا فيما لاتُسْألون عنه، ولاتضحكوا ممّا لايُضحك منه، ولقد رأيت جَبَلا مطلاّ تزايله حجارته، ولقد رأيته أملس ما فيه صَدْع، ألْزِموا النساء المهابة، ولنعم لهْو الحُرّة المغزل، وأحمق الحمق الفجور، وحيلة من لاحيلة له الصبر، إن كنت نافعى فورِّ عينى عينك، إن تعش ترمالم تر، قد أقرّصامت، المكثار كحاطب ليل. ومن أكثر أسْقط، لاتبولوا على أكَمَة، ولاتفشوا سرا إلى أمة، من لم يرْج إلا ما هو مستوجب له كان قَمنًا أن يدرك حاجته، ولاتمنعنكم مساوئ الرجل من ذكر محاسنه. يابَنِيّ لايغلبنكم جمالُ النساء عن صراحة النّسَب؛ فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف... اهـ[٢].

الرابعة: وصيّة دُريد بن الصمّة الجُشَميّ إلى قومه:

قال أبو حاتم السجستانيّ: عاش دريد بن الصمة الجُشميّ نحوا من مائتى سنة حتى سقط حاجباه على عينيه، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل يوم (حُنَين) كافراً.

---

(١) انظر: المعمرون والوصايا ص ٢٣، ٢٤.

(٢) انظر: المعمّرون والوصايا ص ١٤-١٥، وانظر: جمهرة خطب العرب حـ١/ ١٣٠-١٣٣.

ولمّا كبر أراد أهله أن يحبسوه فقالوا : إنا حابسوك ، ومانعوك من كلام الناس ، فقد خشينا أن تُخلّط فيروى ذلك الناس علينا ، ويرون منك علينا عـارًا . قال : أوقد خشيتم ذلك منّى؟ قالوا : نَعَم . قال : فانحروا جزورًا ، واصنعـوا طعاما ، واجمعوا إلىّ قومى حتى أحدث لهم عهدا .

فنحروا جزورًا ، وعملوا طعاما ، ولبس ثيابا حـسانا ، وجلس لقومه ، حتى إذا فرغوا من طعامهم قال : اسـمعوا منّى فإنّى أرى أمرى بعد اليوم صـائرًا لغيرى ، وقد زعم أهلى أنهم خافوا علىّ الوهم ، وأنا اليوم خبير بصير . إنّ الوصيّة لاتهجم على فضيحة .

أمّا أول ما أنهاكم عنه : فأنهاكم عن محاربة الملوك ، فإنهم كالسيل بالليل لاتدرى كيف تأتيه؟ ولا من أين يأتيك؟ وإذا دنا منكم الملكُ واديًا فاقطعوا بينكم وبينه واديين ، وإن أجـدبتم فلا ترعـوا حِمَـى الملوك وإن أذنوا لكم ، فإن مـن رعاه غنمـا لم يرجع سالمـا ، ولاتحقرنّ شرًا ؛ فـإن قليله كثيـر ، واستكثروا من الخيـر فإنّ زهيده كبـير ، واجعلوا السّلام محياة بينكم وبين الناس ، ومن خـرق ستركم فارقعوه ، ومن حاربكم فلا تُغْفلوه ، ورروا منه ما يرى منكم ، واجعلوا عليه حدّكم كلّه ، ومن تكلّم فاتركوه .

ومن أسْدى إليكم خيـرًا فأضْعفوه له ، وإلا فلا تَعْـجزوا أن تكونوا مثله . وعلى كل إنسان منكم بالأقرب إليـه يكفى كل إنسان مايليه ، وإذا التقيـتم على حَسَب فلا تواكلوا فـيه . ومـا أظهرتم من خـير فـاجعلوه كـثيـرا ، ولايُرَى رِفْدكم صـغيـرا ، ولاتنافسوا السّؤدد ، وليكن لكم سيّد ، فإنه لابدّ لكل قوم من شريف ، ومن كانت له مروءة فليظهرها ، وحسْـبه بالمروءة صاحبا ، ووسّعـوا الخير وإن قلّ ، وادْفنوا الشرّ يَمُت ، ولاتنكحوا دَنِيا من غـيركم ، فإنه عار عليكم ، ولايحتـشمنّ شريف أن يرفع وضيعـه ، وإيّاكم والفاحشة فى النسـاء فإنها عار أبَدِ ، وعقـوبة غَدِ . وعليكم بصلة الرّحم فإنّها تعظّم الفضل ، وتزيّن النّسل ، وأسْلموا ذا الجريرة بجريرته ، ومن أبى الحق فأعـقلوه إيّاه ، وإذا عييتم بأمر فـتعاونوا عليـه تبلغوا ، ولاتحـضروا ناديكم السّفيه ، ولاتلجُّوا بالباطل فيلجً بكم . . . اهـ[1] .

---

(١) انظر : المعمرون والوصايا ص ٢٧-٢٨ .

الخامسة: وصيّة زهير بن جناب لبنيه:

قال أبو حاتم السجستانىّ: قالوا: أوصى زهير بن جناب بنيه فقال: يابَنِىّ قد كبرت سنى، وبلغت حَرْسًا من عمرى[١]، وأحكمتنى التجارب، والأمور تجربة واختبار، فاحفظوا عنى ما أقول وعُوه، وإيّاكم والْخورَ عند المصائب، والتواكل عند النّوائب، فإنّ ذلك داعية للغمّ، وشماتة للعدوّ، وسوء الظنّ بالربّ وإيّاكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه والله ماسخر امرؤ قط إلا ابتُلى، ولكن استعفوا منها وتوقعوها، فإنما الإنسان فى الدنيا غرض تعاوره الرّماة: فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثمّ لابدَّ أنه مصيبه... اهـ[٢].

السادسة: وصيّة حصن بن حذيفة لبنيه:

قال أبو حاتم السجستانىّ: أوصى حصْن بن حذيفة الفزارى بنيه فقال: اسمعوا ما أوصيكم به، لايتكلنّ آخركم على فعال أوّلكم، فإن الذى يدرك به الأوّل حجة على الآخر، وانكحوا الكفء من العرب فإنه عزّحادث، وإذا حاربتم فأوقعوا، وقولوا واصدقوا، فإنه لاخير فى الكذب وصونوا الخيل فإنها حصون الرجال، وأطيلوا الرّماح فإنها قرون الخيل، واغزوا الكثير بالكثير، وبذلك كنت أغلب الناس، ولاتغزوا إلا بالعيون، ولاتسْرحوا حتّى تأمنوا الصباح، وعجِّلوا القِرَى، فإن خيره أعْجله، وأعطوا على حسب المال فإنه أبقى لكم، ولا تحسدوا من ليس مثلكم، ولاتحْكروا على الملوك فإنّ أيديهم أطول من أيديكم، ولاتأمنوا صرَعات البغْى، ونضحات الغَدْر، وفلتات المزاح... اهـ[٣].

السابعة: وصيّة أبى طالب لقريش حين حضرته الوفاة:

لما حضرت أبا طالب الوفاة، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال لهم: يامعشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلْب العرب، وفيكم السيّد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه، ولاشرفا إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب على حربكم، وإنّى أوصيكم بتعظيم هذه (البنْية)[٤]؛

---

(١) وهو الدّهر الطويل.

(٢) انظر: المعمرّون والوصايا ص ١٢٩، وأمالى المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم حـ١/ ٢٣٨.

(٣) انظر: المعمّرون والوصايا ص ١٣٢-١٣٣، وأمالى المرتضى حـ١/ ٥٣١.

(٤) المرادبها: الكعبة.

فإن فيهــا مرضاة للرّبّ، وقواما للمعاش، وثبـاتا للوطأة، صلوا أرحامكم؛ فإنّ صلة الرّحم منْسأة فى الأجل، وزيادة فى العدد، اتركـوا البغى والعقـوق ففـيهمـا هلكت القرون قـبلكم، أجيبـوا الداعى، وأعطوا السائل فإن فـيهما شـرف الحياة والمـمات، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة فى الخاص، ومكرمة فى العام.

أوصيكم بالنبى محمد خيـرًا؛ فإنه الأمين فى قريش، والصدّيق فى العرب، وهو الجـامع لكل ما أوصـيكم به، وقد جـاءنا بأمر قَـبِلَهُ الجَنَان، وأنكره اللسـان مخـافة الشنآن، وايْمُ الله كأنّى أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصـارت رؤساء قـريش وصناديدها أذنابا، ودورها خـرابا، وضـعفـاؤها أرْبابا. إذا أعظمهم عليه أحْوجهم إليه، وأبعدهم منه أخطؤهم عنده. قد محضته العرب ودادها، وأصفت له بلادها، وأعطته قيادها. يامعشر قريش كونوا له ولاة، ولحزْبه حماة، والله لايسلك أحد سبيله إلا رَشد، ولايأخذ بهديه أحد إلا سعد، ولوكان لنفسى مدّة، وفى أجَلى تأخير لكففتُ عنه (الهزَاهز)(١)، ولدافعتُ عنه الدواهى... اهـ(٢).

الثامنة: وصيّة عامر بن الضَّرب لقومه عند وفاته:

قال أبو حاتـم السجستانـى: لما كبر عامـر بن الضرب وتخوف قـومه أن يموت اجتمعوا إليــه فقالوا له: ياسيدنا وشريفنا أوصنا. فقال: لقد كلفـتمونى تعبا، إن كنتم شرفـتمـونى فقـد التمســتُ ذلك منكم، وإنى قد أريتكم ذلك من نفـسى، وأنّى لكم مثلى، افـهموا عنى ما أقـول لكم: من جمع بين الحق والبـاطل لم يجتمعـا له وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل يـنفر من الباطل، ولـم يزل البـاطل ينفر من الحق، لاتشتموا بالزّلّة، وبكلّ عـيش يعيش الفقير، وأعدّوا لكلّ أمْر قـدره، قبل الرماء تُملأ الكنائن، ومع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال وفيهـا ذمامة، فلا تذُمّوا العقوبة، واليد العليا معهـا عافية، والقَوَدُ راحة لاعليك ولا لك، وإذا شـئت وجدت مثلك إنّ عليك كمـا أنّ لك، وللكثرة الرّعب، وللـصبر الغلبـة. من طلب شيـئا وجـده، وإلا يجده

---

(١) أى: مايهز الإنسان من المصائب.

(٢) انظر: بلوغ الأدب فى معرفة أحوال العرب تأليف: محمود شاكر الألوسى جـ١/ ٣٢٧-٣٢٨.

يوشك أن يقع قريبا منه. فيا معشر عدوان إيّاكم والشرّ فإنّ له باقية، وادفعوا الشرّ بالخير يغلبه، إنّ من يدفع الشرّ بالشرّ رجع الشرّ عليه، وليس فى الشرّ أسْوة، ومن سبقكم إلى خير فاتّبعوا أثره تجدوا فضلا، إنّ خالق الخير والشرّ وسعهما، ولكل يد منهما نصيب. يا معشر عدوان إنّ الأوّل كفى الآخر، فمن رأيتموه أصابه شرّ فإنما أصابه فعله، فاجتنبوا ذلك الذى فعله، يا معشر عدوان إنّ الشرّ ميّت، وإنما يأتيه الحىّ فيصيبه، ومن اجتنب الشرّ لم يثِب الشرُّ عليه. يا معشر عدوان: إنّ الخير غَزُوف ألوف، ولم يفارق الخيرُ صاحبَه حتى يفارقه، ولن يرجع إليه حتّى يأتيه.

يا معشر عدوان: ربّوا صغيركم، واعتبروا بالناس ولا يعتبر الناسُ بكم، وخذوا على أيدى سفهائكم تقل جرائركم، وإيّاكم والحسد فإنه شؤم ونكد، وإن كل ذى فضل واجد أفضل منه، ومن بلغ منكم خُطّة خير فأعينوه، واطلبوا مثلها، ورغّبوه فى نيّته، وتنافسوا فى طريقته، ومن قصّر فلا يلومنّ إلا نفسه، وإنّى وجدت صدق الحديث طَرَفا من الغيب فاصْدُقوا تُصَدّقوا، وإنى رأيتُ للخير طُرقا فسلكتُها، ورأيتُ للشرّ طرقا فاجتنبتها، وإنى والله ما كنت حكيما حتى تبعتُ الحكماء، وما كنتُ سيّدكم حتى تعبَّدت لكم، إنّ الموعظة لاتنفع إلا عاقلا، وإنّ لكل شىء داعيا، فأجيبوا إلى الحقّ وادعوا إليه وأذعنوا له... اهـ[١].

التاسعة: وصيّة ذى الإصبع العدوانى لابنه أسَيْد:

قال أبو الفرج الأصبهانىّ: لـمّا احتُضِر ذو الإصْبع دعا ابنه أُسَيْدًا فقال له: يا بُنَىّ إنّ أباك قد فَنِى وهو حىّ، وعاش حتى سئم العيش، وإنى موصيك بما إنْ حفظتَه بلغتَ فى قومك ما بلغتُه، فاحفظ عنى: ألِن جانبك لقومك يحبّوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهَك يطيعوك، ولاتستأثر عليهم بشىء يسوِّدوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويكبُر على مودّتك صغارهم، واسمح بمالك، واحْم حريمك، وأعْزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسْرع النّهضة فى الصّريخ، فإنّ لك أجَلا لايعدوك، وصُنْ وجهك عن مسئلة أحَد شيئا، فبذلك يتمّ سؤددك... اهـ[٢].

(١) انظر: المعمَّرون والوصايا ص ٥٩، ٦٠.

(٢) انظر: الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى حـ٣/٩٨-٩٩، وجمهرة خطب العرب حـ١/١٢.

العاشرة: وصيّة عامر بن الضرب لابنته عند زواجها:

قال أبو حاتم السجستانىّ: كان من حديث عـامر عندما زوّج ابنته (نَعْمَةَ بنت عامر) ابن أخيه عامرًا بن الحارث، وقال لأمـها وهى: مارية بنت عوف بن فِهر حين أراد البناء بها: يا هذه مرى ابنتك فلا تَنزلنّ فلاة إلا معها مـاء، وأن تكثر استعمال الماء، فلاطيب أطيب منه، وإنّ الماء جُـعِل للأعلى جلاء، وللأسفْل نقـاء، وإيَّاكِ أن تميلى إلى هواك ورأيك، فـإنه لارأى للمرأة، وإياى ووصـيتك، فـإنه لاوصيـة لكِ. أخبـرى ابنتك أنّ الكرامة المؤاتاة، فـلاتستكرهنّ زوجها من نفـسها، ولاتمنعه عند شهـوته؛ فإنّ الرّضا الإتيان عند اللذة، ولا تكثر مضاجعته، فإنّ الجسد إذا ملّ ملّ القلب، ومريها لا تمزحنّ معه بنفسه، فإن ذلك يكون منه الانقباض، ومريها فلْتخبأ سوءتها منه، فإنه وإن كان لابدّ من أن يراها؛ فإنّ كثرة النظر إليها استهانة وخفّة.. اهـ[1].

الحادية عشرة: وصيّة عامر بن الضرب لـمّا خطب إليه صعصعة ابن معاوية ابنته:

قال أبو حـاتم السجـستانىّ: وكـان من حديث عـامر بن الضرب أنـهّ خطب إليه صعصـعة بن معاوية ابنته فـقال له: يا صعصعـة قد جئت تشترى منّى كـبدى، وأكرم ولدى عندى، النكاح خير من الأيمة، والحسَبُ كـفاء الحسَب، والزّوج الصالح يُعدّ أبًا، قد أنكحـتُك خشـية ألا أجد مـثلك. يا معشـر دَوْس خرجَتْ كريمـتكم من بين أظهركم من غـير رغبة عنكم، ولكنّه خُطّ له شىء جـاءه، ربّ زارع لنفسه مـا حصده غيره، ولولا قَسْم الحظوظ ما أدرك الآخر مع الأوّل شيئا يعيش به، ولكن رزق آكل من آجل وعاجل، إنّ الـذى أرسل الحىّ أنبت المرعى، ثم قـسمه، وكـلاً لكل فَمٍ بقْلة، ومن الماء جُرْعة، ترون ولاتـعملون، ولن يرى ما أصف لكم إلا كل قلب واعٍ، ولكلّ مرعـى راعٍ، ولكل رزق سـاعٍ، ولكل خَلق خُلق: كيّسٌ أو أحْمق، وما رأيتُ شـيئا قطّ إلا سمعتُ حِسّـه ووجدتُ مسّه، وما رأيـت شيئا خَلَق نـفْسـه، ومارأيـت موضـوعـا إلا مصنوعا، وما رأيتُ جـائيا إلا ذاهبا، ولاغانما إلاّ خائبا، ولانعمـة إلا معها بؤس، ولو كان يميت الناس الدّاءُ، لأعاشـهم الدّواء، فهل بكم العلم العليم؟ قيل: وما هو؟

(١) انظر: المعمّرون والوصايا ص٦٠.

فقـد قلتَ فأصـبتَ، وأخبرت فـصدَقتَ، فـقال: أرى أموراً شـتى، ولذلك خلقت الأرض والسموات، فتولّوا عنه ذاهبين. . . اهـ[(١)].

الثانية عشرة: وصيّة أمّ أمّ إياس بنت عوف لابنتها ليلة زواجها:

قال ابن عبد ربّه: خطب عمرو بن حُجْـر إلى عوف بن مُحَلّم الشيبانيّ ابنته أمّ إياس فقال: نَعَم. أزوّجها على أن أسمى بنيها، وأزوّج بناتهـا. فقال عمرو بن حُجْر: أمّا بنونا فنسميهم بأسمائنا، وأسماء آبائنا، وعمومتنا، وأمّا بناتنا فينكحهنّ أكفاؤهن من الملوك، ولكنّى أصدقها عـقاراً فى (كنْدة) وأمنحها حاجات قومهـا، ولاتُرَدّ لأحد منهم حاجة، فقبل ذلك منـه أبوها، وأنكحه إيّاها. فلمّا كان بناؤه بهـا خلت بها أمّها فـقالت: أىْ بُنَيّة إنك فارقْت بيتك الذى منـه خرجْت، وعُشّك الذى فيه درَجْت، وإلى رجل لم تعـرفيه، وقرين لم تألَيفه، فكونى له أَمَة يكن لَك عَبْداً، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخْرا:

أمّا الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمـوضع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولايشمّ منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفـقُّد لوقت منامه وطعامه، فإنّ تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثـامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمـه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التدبير، وفى العيال حسن التقدير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلاتعـصينّ له أمراً، ولاتفشينّ له سرا، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمنى غدره. . اهـ[(٢)].

- والله أعلم -

---

(١) انظر: المعمّرون والوصايا ص ٦٣ - ٦٤، والعقد الفريد جـ٦/ ٨٣.

(٢) انظر: العقد الفريد جـ٦/ ٨٣-٨٤.

الموضوع الرابع

وصايا العصر الأموى

الأولى: وصية معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - لولده يزيد:

إذ قال له لما حضرته الوفاة: يا بُنىَّ إنى كفيتك الحلَّ والترحال، ووطّأت لك الأشياء، وذلّلت لك الأعزّاء، وأخضعتُ لك أعناق العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه واحد.

فانظر أهل الحجاز: فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهّد من غاب عنك منهم.

وانظر أهل العراق: فإن سألوك أن تعزل عنهم فى كلّ يوم عاملا فافعل، فإنّ عزل عامل أحبّ إليك من أن يُشْهر عليك مائة ألف سيف.

وانظر أهل الشام: فليكونوا بطانتك، فإذا أصبت بهم عدوّك فارددهم إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أقاموا بغير أخلاقهم... اهـ[١].

الثانية: وصيّة عبد الملك بن مروان - رحمه الله تعالى - لبنيه عند ماحضرته الوفاة:

إذْ قال: يا بنَىَّ أوصيكم بتقوى الله فإنها أحصن كهف، وأزين حلية، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حقّ الكبير، وإياكم والاختلاف والفرقة، فإنّ بهما هلك الأوّلون قبلكم، وذلّ ذوو العدد والكثرة. انظروا مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢٠هـ)[٢]، فاصدروا عن رأيه، فإنه جُنّتكم الذى به تستجنّون. أكرموا الحَجّاج فإنّه وطّأ لكم المنابر، وكونوا عند القتال أحرارًا، وعند المعروف منارا، وكونوا بنى أمّ بررة، لينوا فى شدّة، ثمّ رفع رأسه إلى الوليد فقال: يا وليد لا أعرفنّك إذا وضعتنى فى حفرتى تمسح عينيك وتعصرهما فعل الأمَة، ولكن إذا وضعتنى فى حفرتى فشمّر واتّزر، والبس جلد النَّمِر، ثم اصعد إلى المنبر فادع الناس إلى البيعة، فمن قال: كذا، فقل: كذا، وأومأ إليه، ومن قال: لا، فاقتله... اهـ[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى حـ٥/ ٣٢٣.

(٢) مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢٠هـ)

كان أميرا قائدا، غزا القسطنطينية فى عهد أخيه سليمان، وبنى بها مسجدا سنة ٩٦هـ.

(٣) انظر: المعمّرون والوصايا ص ١٦٠.

الثالثة: وصيّة هشام بن عبد الملك لمؤدّب ولده محمد:

قال أبو حاتم السجستانىّ: ذكر بعض أهل العلم أن هشامًا بن عبد الملك أرسل إلى سليمان الكلبىّ، وكان رجلا جامعا للأدب فاضلا، ذا رأى. قال سليمان الكلبى: فدخلتُ عليه وهو فى غرفة له، قد علا نفسى، وانتفخ سحرى، فسلّمت عليه فردّ علىّ، وأضرب عنّى حتى سكن جاشى، ثم قال لى: ياسليمان قد بلغنى عنك ما أحبّ، وإذا بلغنى عن أحد من رعيّتى مثل الذى بلغنى عنك أسرعتُ إليه بما يحبّ، واستعنتُ به على مهمّ أمرى. وإنّ محمدًا ابن أمير المؤمنين بالمكان الذى بلغك، وهو جلدة ما بين عينى، وإنى أرجو أن يبلّغ الله به أفضل ما بلّغ بأحد من أهل بيته، وقد ولاك أمير المؤمنين تأديبه، وتعليمه، والنظر فيما يُصْلح الله به أمره. فعليك بتقوى الله، وأداء الأمانة فيه، فإنك تقصد فيه بخصال لو لم تكن إلا واحدة كنتَ قَمِنًا ألا تُضيعها، فكيف إذا اجتمعت؟

أمّا أوّلها: فإنك مؤتمن عليه، وحُقّ لك أداء الأمانة فيه.

وأمّا الثانية: فأنا إمام ترجونى، وتخافنى.

وأمّا الثالثة: فكلّما ارتقى الغلام فى الأمور درجة ارتفعت معه، ففى هذا ما يرغّبك فيما أوصيك به.

فأدْخل عليه فى خاصّة أهل القرآن، وذوى الأسنان، فإنك منهم بين خصلتين: إمّا أن يسمع منهم كلاما فيعيه ويحفظه، فيكون لك صونه وذكره، وإمّا أن يراهم الناس يخرجون من عنده فيرون أنكم على مثل ماهم عليه. ولاتُدْخِل عليه الفسّاق، ولا شَرَبَة الخمر، فإنك منهم بين خصلتين: إما أن يسمع منهم كلاما قبيحا فيعيه، ويحفظه، ويأخذ به، فتريد تحويله عن ذلك فلا تقدر عليه. وإما أن يرى الناس أنهم يخرجون من عندك فيرون أنكم على مثل ما هم عليه، وانظر إذا سمعتَ منه الكلمة العوراء فلا تؤنّبه بها فَتُمَحكه، ولكن احفظها عليه، فإذا قام من مجلسه فانقله إلى ما هو أحسن منه، وإذا سمعت منه الكلمة العجبة ففطّن القوم لها، فإنهم عسى ألا يكونوا فهموها، وأنت فهمتها باهتمامك بها، حتى يقوموا وقد سمعوا منه كلاما حسنا، ويروونه عنه ويرفعونه به. وإذا حضر الناسُ أبوابكم فعجّلوا إذنهم، ثم يحسن بشركم به، وأطيبوا

للناس طعامـهم، فإذا فرغوا من الغداء أو العشاء، فمن أحبّ أقام للحـديث من قبل نفسـه. ومن أحبّ انصرف إلى أهله؛ فـإنّ للناس حوائج عند زيارتكـم. وإذا أعطيتم أهل القرآن، وحملة العلم، وأهل الفضل، فإنكم تؤجرون على إعطائهم. وخذه بعلْم نَسَبه فى العرب، حـتى لا يخفى عليه منه قليل ولا كثير، وعلّـمه منازل القمر، وأنواع الخطب، ومواضع الكلام، ومعرفة الجـواب. وإيّاك أن تكتم عليه، فيؤدى ذلك إلى غيـرُك، فأنزل لك عمّا يسـرّك إلى ما يضرّك، ولا يخـرجَنّ إلا مُعْتمـاً، ولا يركبنّ لا محذوفا[١]، ولا مَهْلوبا[٢]، ولا يركبنّ سرْجا صغيراً فتـبدو منه إليتاه كفعل الفساق، فخـذه بهذه الخصال، وزده من عنـدك ما استطعت، فإنى سـأقيس عقله اليـوم وبعد اليوم، فإن رأيتُه قـد ازداد خيراً إلى ما كان عليه رُؤى فضل أمـير المؤمنين، وإن كانت الأخـرى فـلا تلمْ إلا نفـسك، وقد أجـريتُ عليك ألف درهـم فى كل شهـر سـوى كسْوتك، وجائزتك . . . اهـ[٣].

الوصيّة الرابعة: وصيّة عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - لرعيته:

قال أبو الفرج بن الجوزىّ: لـمّا ولى عمر بن عـبدالعزيز حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بتـقوى الله فإنّ تقـوى الله خلف من كلّ شىء، واعملوا لآخرتكم، فـإن من عمل لآخرته كفاه الله - تبارك وتعالى - أمر دنياه، فأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وإنه من لم يذكر من آبائه ما بينه وبين آدم - عليه السلام- أبًا حيًا لمعرق له فى الموت . . . اهـ[٤].

الخامسة: وصيّة عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - لأحد جنوده:

إذْ قال له: أمّا بعد: فإنّى أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته، فإنّ بتقوى الله نجاة أولياء الله من سخطه، فبادر بنفسك قـبل أن تؤخذ بظلمك، ويخلص إليك كما يخلص إلى من كان قبلك، فقد رأيت الناس كيف يموتون، وكـيف يتفرّقون، ولا تطلبنّ شيئا من عرض الدنيا بقول، ولا فعل تخاف أن يضرّ بآخرتك، ويزرى بدنياك، ويمقتك عند ربك.

---

(١) الفرس المحذوف: هى التى تُحَرّك جنبها أو عجزها فى المشى.
(٢) الفرس المهلوب: هى التى تتقرّب من الحصان، أو المتجنّبة له.
(٣) انظر: المعمّرون والوصايا، ص ١٣٧-١٣٩.
(٤) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى ص ٢٥٤.

واعلم أنّ القدر سيجرى إليك برزقك ويوفّيك أكلك من دنياك بغير مزيد فيه بحَوْل منك ولا قوّة، ولا منقوصا منه بضعف. إن ابتلاك الله بفقر فتعفّف فى فقرك، وأخْبِتْ لقضاء ربك، واعتبر ما قسم الله لك من الإسلام بما زوى عنك من نعيم الدنيا الفانية.

واعلم أنه ليس يضرّ عبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه فى الدنيا من فقر أو بلاء، وأنه لن ينفع عبدًا صار إلى سخط الله، وإلى النار ما أصاب فى الدنيا من نعمة أو رخاء. ما يجدى أهل الجنة من مكروه أصابهم فى دنياهم، وما يجدى أهل النار طعم لذة نعموا بها فى دنياهم، كل شىء من ذلك كأن لم يكن، كلّ يوم تشيّعون غاديًا، ورائحا قد قضى نحبه، وقضى أجله، فاتقوا الله قبل نزول الموت، وايم الله إنّى لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر ممّا أعلم عندى، وأستغفر الله وأتوب إليه.. اهـ[1].

السادسة: وصيّة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - لولده عبد الملك[2]:

وقد جاء فيها:

أمّا بعد: فإنّ أحقَ مَنْ تعاهدتُ بالوصيّة والنصيحة بعد نفسى أنتَ، وإن أحق من وعى ذلك وحفظه عنّى أنتَ.

إنّ الله له الحمد قد أحسن إلينا إحسانا كثيرًا بالغًا فى لطيف أمرنا وعامّته، وعلى الله إتمام ما غير من النعمة، وإيّاه نسأل العون على شكرها، فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، ثمّ أعن أباك على ما قوى عليه، وعلى ما ظننتَ أنّ عنده فيه عجزًا عن العمل فيما أنعم به عليه، وعليك فى ذلك فراغ نفسك، وشبابك، وصحتك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميدًا، وتسبيحا، وتهليلا فافعل، فإنّ أحسن ما قطعتَ به حديثا حسنا حَمْد الله وشكره، وإنّ أحسن ما قطعتَ به حديثا سيئا حَمْد الله وذكره، فلا تفتتننّ فيما أنعم الله به عليكِ فيما عسيتَ أن تقرّظ به أباك فيما ليس فيه.

إنّ أباك كان بين ظهرى إخوته يُفضّل عليه الكبير، ويدنى دونه الصغير، وإن كان الله -وله الحمد- قد رزقنى من والدى حَسَبا جميلا كنتُ به راضيا، وقد ولدتَ، وولدت طائفة من إخوتك، ولا أخرج بكم من المنزل الذى أنا فيه.

---

(١) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) هو أحد أولاد عمر بن عبدالعزيز مات فى حياة والده.

فمن كان راغبا فى الجنة، وهاربا من النار فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور قبل نفاد الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ الله للمنقلبين بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يَرِدُه الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه أشتاتا إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله. فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصد فى غناك، وضع لله نفسك، وأدِّ إلى الله فرائض حقه من مالك، وإياك أن تفخر بقولك وأن تعجب بنفسك، أو يُخَيَّل إليك أنّ ما رُزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يُرْزق مثل غناك، فإذا أنت أخطأت باب الشكر، وتركت منازل أهل الفقر، وكنت ممّن طغى للغنى، وتعجّل طيّباته فى الحياة الدنيا، فإنّى لأعظك بهذا، وإنّى لكثير الإسراف على نفسى غير محكم لكثير من أمرى، ولو أنّ المرء لم يعظ أخاه حتى يُحْكم أمر نفسه، ويعمل فى الذى خُلِق له من عبادة ربّه، إذًا لتواكل الناس الخير، وإذًا لرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقلّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة فى الأرض . . . اهـ[1].

السابعة: وصيّة المهلّب بن أبى صفرة لبنيه عند وفاته:

إذْ قال: يا بَنِيَّ أوصيكم بتقوى الله وصلة الرّحم؛ فإنّ تقوى الله تعقب الجنّة، وإن صلة الرّحم تنسئ فى الأجل، وتثرى المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمّر الدار، وتعزّ الجانب، وأنهاكم عن معصية الله، وقطيعة الرّحم؛ فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرَّحم تورث القلة والذّلّة، وتفرّق الجمع، وتدع الدّار بلاقع، وتطمع العدوّ، وتبدى العورة.

يا بَنِيَّ قومكم قومكم، إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم: إذْ فضّلوكم، وسوّدوكم، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم، فلهم بذلك حق عليكم لا تؤدّون شكره، ولا تقومون بحقّه.

فإذا طلبوا فأطلبوهم، وإذا سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدئوهم، وإن شتموا فاحتملوا لهم، وإذا غَشَوْا أبوابكم فلتفتح لهم، ولا تغلق دونهم.

(١) انظر: حلية الأولياء جـ٥/ ٢٧٥، ٢٧٧. وانظر: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى ص ٢٩٧-٢٩٩.

يا بَنىَّ إنى أحبّ للرجل منكم أن يكون لفعله الفضلُ على لسانه، وأكره أن يكون للسانه الفضل على فعله.

يا بَنىَّ اتقوا الجواب وزلّة اللسان، فإنى رأيتُ الرجل يعثر قدمُه، فيقوم من زلّته، فينتعش منها سويّا، ويزلّ لسانه فيوبقه وتكون فيه هلكته.

يا بَنىَّ إذا غدا عليكم رجل وراح فكفى بذلك مسألة وتذكِرةً بنفسه.

يا بَنىَّ ثيابكم على غيركم أجمل منها عليكم، ودوابّكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم.

يا بَنىَّ أحبّوا المعروف وافعلوه، واكرهوا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجُود على البخل، واصطنِعوا العربَ وأكرموهم: فإن العربىّ تعده العدَة فيموت دونكم ويشكر لكم، فكيف بالصّنيعة إذا وصلت إليه فى احتمالها، وشكرها، والوفاء منها لصاحبها.

يا بَنىَّ سوّدوا أكابركم، وأعِزّوا ذوى أسنانكم تعظموا بذلك، وارحموا صغيركم وقرّبوه وألطفوه، وأجيروا يتيمكم، وجودوا عليه بما قدرتم، وخذوا على أيدى سفهائكم، وتعهّدوا جيرانكم، وفقراءكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق، واحذروا عار عدوّكم عليكم فى الحرب بالأناة والتّؤدة فى اللقاء، وعليكم بالتماس الخديعة فى الحرب لعدوّكم، وإيّاكم والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة أنفع من الشجاعة.

تعلّموا القرآن، والسّنن، والفرائض، وتأدّبوا بأدب الصالحين من قبلكم من سلفكم الصالح، ولا تُقاعدوا أهل الدّعارة والرّيبة، ولا تخالطوهم ولا يطمعُنَّ فى ذلك منكم، وإيّاكم والخفّة فى مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يسلم منه صاحبه، وأدّوا حقّ الله عليكم، فإنّى قد أبلغتُ إليكم الوصيّة، واتخذتُ لله عليكم الحجّة... اهـ[1].

الثامنة: وصيّة الأشعث بن قيس لبنيه:

إذ قال لهم: يا بَنىّ لا تذلّوا فى أعراضكم، وانخدعوا فى أموالكم، ولْتخِفّ بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإنّ لكلّ امرىء تبعة، وإيّاكم وما يُعْتذر منه، أو يُسْتحى، فإنما يُعتذر من ذنب، ويُستحى من عيب، وأصلحوا المال لجفوة السلطان، وتغيّر الزمان، وكفّوا عند الحاجة عن المسألة، فإنه كفى بالردّ منعا،

(١) انظر: المعمَّرون والوصايا ص ١٤١-١٤٣.

وأجملوا فى الطلب حتى الرزق قدرا، وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتـأسّى بكم الكريم، ويتـشرّف بكم اللئـيم، وكونـوا فى عوامّ الناس مـالم يضطرب الجبل، فإذا اضطرب الجبل فالحقوا بعشائركم . . . اهـ[١].

التاسعة: وصيّة عباد بن عبّاد الخواص إلى أهل السنّة والجماعة:

إذ قال لهم: اعقلوا، والعقل نعمة، وإنه يوشك أن يكون حسرة، فربّ ذى عقل قد شغل قلبه بالتعمّق، فيما هو عليه ضرر عن الانتفاع بما يحتاج إليه، حتى صار عن ذلك ساهيا.

ومن فضل عقل المرء ترك النظر فيما لا نظـر فيه حتى يكون فضل عقله وبالا عليه فى ترك مناقشة من هو دونه فى الأعـمال الصالحة، أو رجل شغل قلبه ببدعـة قلّد فيها دينه رجالا دون أصحـاب رسول الله ﷺ، أو رجل اكتفى برأيه فيـما لا يرى الهدى إلا فيـها، ولا يرى الضلالـة إلا تركها بزعم أنه أخـذها من القرآن، وهو يدعـو إلى فراق القرآن، أفـما كـان للقرآن حـملة قبله وقـبل أصحابه يعـملون بمحكمـه، ويؤمنون بمتشابهه وكانوا منه على منار أوضح للطريق؟

وكان القـرآن إمام رسـول الله ﷺ، وكان رسـول الله ﷺ إمامـا لأصحـابه، وكان أصحابه أئمة لمن بعـدهم، رجال معروفون منسوبون فى البلدان، مـتفقون فى الردّ على أصحـاب الأهواء مع ما كان بينهم من الاخـتلاف، وتسكع أصـحاب الأهواء برأيهم فى سبل مخـتلفة جائرة عن القصد، مفـارقة للصراط المستقـيم، فتوّهت بهم أدلاّؤهم فى مهامَه مضلّة[٢]، فأمعنوا فيها متعسّفين فى هيئاتهم، كلما أحدث لهم الشيطان بدعة فى ضلالتهم انتقلوا منها إلى غيرها؛ لأنهم لم يطلبوا أثر السّالفين، ولم يقتدوا بالمهاجرين.

وقد ذكر عن عـمر أنه قال لزياد: هل تدرى ما يهدم الإسـلام؟ زلّة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلّون.

اتقوا الله وما حدث فى قرّائكم، وأهل مساجدكم مـن الغيبة، والنميمة، والمشى بين الناس بوجهين ولسانين، وقد ذكر أنه من كـان ذا وجهين فى الدنيا، كان ذا وجهين فى النار، يلقاك صاحب الغيبة فيغتاب عندك من يرى أنك تحبّ غيبته، ويخالفك إلى صاحبك فيأتـيه عنك بمثله، فإذا هو قد أصاب عند كل واحد منكمـا حاجته، وخفى على كل واحد منكما ما يأتى عند صاحبه، حـضوره عند من حضر حضور الإخوان، وغيبته عند من غاب عنه غيبة الأعداء.

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٣/ ١٥٤.

(٢) المهامَه: المفازة البعيدة، والبلد المقفر.

من حضر منهم كانت له الأثرة، ومن غاب منهم لم تكن له حرمة. يغبن من حضره بالتزكية، ويغتاب من غاب عنه بالغيبة.

فيا لعباد الله أمَا فى القوم من رشيد ولا مصلح، به يقمع هذا عن مكيدته، ويردّه عن عِرض أخيه المسلم؟ بل عرف هواهم فيما مشى به إليهم فاستَمْكن منهم، وأمكنوه من حاجته، فأكل بدينه مع أديانهم.

فالله الله ذُبُّوا عن حُرَم أعيانكم، وكفّوا ألسنتكم عنهم إلا من خير، وناصحوا الله فى أمتكم إذا كنتم حملة الكتاب والسنة، فإن الكتاب لا ينطق حتى يُنطق به، وإن السنة لا تعمل حتى يعمل بها، فمتى يتعلم الجاهل إذا سكت العالم: فلم ينكر ما ظهر، ولم يأمر بما ترك؟ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

كأنه لا يعلمه إخوانكم: إن أرضوكم لم تناصحوهم، وإن أسخطوكم أغنيتموهم، فلا أنتم ورعتم فى السخط، ولا أنتم ناصحتموهم فى الرضا.

فاتقوا الله فإنكم فى زمان رقّ فيه الورع، وقلّ فيه الخشوع، وحَمَل العلمَ مفسدوه، فأحَبّوا أن يُعرفوا بحمله، وكرهوا أن يُعرفوا بإضاعته، فنطقوا فيه بالهوى، لما أدخلوا فيه من الخطأ، وحرّفوا الكلم عمّا تركوا من الحقّ إلى ما عملوا به من الباطل، فذنوبهم ذنوب لا يُستَغفر منها، وتقصيرهم لا يُعترف به.

كيف يهتدى المستدلّ المسترشد إذا كان الدليل حائرا؟ أحبّوا الدنيا، وكرهوا منزلة أهلها، فشاركوهم فى العيش، وزايلوهم بالقول، ودافعوا بالقول عن أنفسهم أن ينسبوا إلى عملهم، فلم يتبرّءوا مما انتفوا منه، ولم يدخلوا فيما نَسَبوا إليه أنفسهم؛ لأن العامل بالحق متكلم وإن سكت، ولا تكتفوا من السّنة بانتحالها بالقول دون العمل بها، فإنّ انتحال السنة دون العمل بها كذب بالقول مع إضاعة العلم، ولا تعيبوا البِدعَ تَزَيّنًا بعيبها؛ فإن فساد أهل البدع ليس بزائد فى صلاحكم، ولا تعيبوها بغيا على أهلها، فإن البغى من فساد أنفسكم.

وليس ينبغى للمطبِّب أن يداوى المرضى بما يبرئهم ويمرضه، فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم، ولكن ينبغى أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى على علاج المرض.

فليكن أمركـم فيمـا تنكرون عن إخوانكم نظرًا منكم لأنفسكم، ونصيـحة منكم لربكم، وشفقة منكم على إخوانكم، وأن تكونوا مع ذلك بعـيوب أنفسكم أعْنى بعيوب غيركم، وأن يستفطم بعضكم بعضـا النصيحة، وأن يحظى عندكم من بذلها لكم وقبلها منكم، وقد قال عمر بن الخطاب -رضى الله عنه: رحم الله من أهدى إلىَّ عيوبى.

تحبّون أن تقـولوا فيُحتمـل لكم، وإن قيل لكم مثل الذى قلتم غضـبتم، تجدون على الناس فيما تنكرون أمورهم، وتأتون مثل ذلك فلا تحبّون أن يؤخذ عليكم.

اتّهمـوا رأيكم ورأى أهل زمانـكم، وتثبّتـوا قبل أن تتكلـموا، وتعلّمـوا قبل أن تعملوا، فإنه يأتى زمان يشتبه فيه الحق بالباطل، ويكون المعروف فيه منكرا، والمنكر فيه معروفا، فمنكم متقرّب إلى الله بما يباعده ومتحبّب إليه بما يبغضه عليه.

فعليكم بالوقوف عند الشبهـات، حتى يبرز لكم واضح الحقّ بالبيِّنة؛ فإنّ الداخل فيمـا لا يعلم بغير علم آثم، ومن نظر إلى الله نظر الله له، وعليكم بالقـرآن فأتمّوا به، وأمّوا به، وعليكم بطلب أثر الماضين فيه... اهـ[1].

العاشرة: وصيّة عدن بن عبدالله الهذلى لابنه فى محاسبة النفس:

إذْ قال له: يا بُنىَّ كن ممّن نأيُه عـمّن نأى عنه يقين ونزاهة، ودنوّه ممّن دنا منه لين ورحمة: ليس نأيُه بكبر ولا بعظمة، ولا دنوّه خداع ولا خلابة،

يقتدى بمن قبله فهو إمام لمن بعـده، ولا يعزب علمه، ولا يحضر جهله، ويعفو فيما يتـبيّن له، ويغمض فى الذى له، ويزيد فى الحق الذى عليه، والخـير منه مأمول، والشرّ منه مـأمون، إن كان مع الغـافلين كتب من الذاكرين، وإن كـان مع الذاكرين لم يكتب من الغـافلين، لا يغرّه ثناء من جـهله، ولا ينسى إحصـاء ما قد عـلمه، إنْ زكى خاف ما يقولون، واستغفـر لما لا يعلمون، يقول: أنا أعلم بى من غيرى، وربى أعلم بى من نفسى، فهو يستبطىء نفسه فى العمل، ويأتى ما يأتى من الأعمال الصالحة على وَجَل، ويظل يذكر، ويمسى وهمّـه أن يُشكر، يبيت حذرًا، ويصبح فرحًـا: حذرًا لما حذر من الغفلة، وفرحا لما أصاب من الغنيمة والرحـمة، إن عصته نفسُه فيما يكره لم يُطعهـا فيما أحـبت، فرغبتـه فيما يخلد، وزهادته فـيما ينفـد، يمزج العلم بالحلم،

(١) انظر: أبا نعيم فى حلية الأولياء جـ٨/ ٢٨٢.

ويصمت ليْسلم، وينطق ليـفهم، ويخلو ليغنم، ويخالق ليعلم، لا ينصت لـخير حين ينصت وهو يسهـو، ولا يستمع له وهو يلغـو، لا يحدّث بأمانته الأصـدقاء، ولا يكتم شهادته الأعداء، ولا يعمل من الخير شيئا رياء، ولا يترك منه شيئا حياء، مجالس الذكر مع الفقراء أحبّ إليه من مجالس اللهو مع الأغنياء.

ولا تكن يا بُنىّ ممّن يَعجب باليقين من نفسه فيـما ذهب، وينسى اليقين فيما رجا وطلب، يقول فـيما ذهب: لو قـدر شىء لكان، ويقول فـيما بقى: ابتغ أيهـا الإنسان شاخصا غير مطمئن، ولا يثق من الرزق بمـا قد ضمن، ولا تغلبه نَفْسه على ما يظن، ولا يغلبهـا على مايستيـقن، فهو من نفـسه فى شك، ومن له إن لم يرحم هلك، وإن سقم ندم، وإن صحّ أمن، وإن افتقر حزن، وإن اسـتغنى افتتن، وإن رغب كسل، وإن نشط زهد، يرغب قبل أن ينصب، ولا ينصب فيما يرغب.

يقول: لم أعمل فأتغنّى، بل أجلس فأتمنّى، يتمنى المغفرة، ويعمل بالمعصية، كان أول عمره غفلة وغرة، ثم أبقى وأُقِيل العثرة، فإذا فى آخره كسل وفترة، طال عليه الأمل فافتتن، وطال عليه الأمد فاغترّ، وأعذر إليه فيما عمّر، وليس فيما عمّر بمعذر، عمّر ما يتذكر فيه من تذكر، فهو من الذنب والنعمة موقّر، إن أعطى لم يُشكر، وإن منع قال: لم يقـدر، أساء البـعد واسـتأثر، يرجو النـجاة ولم يحذر، ويبـغى الزيادة ولم يشكر، يتكلّف مالم يؤمر، ويضيّع ماهو أكثر.

إن يسأل أكـثر، وإن أنفق قتّـر، يسأل الكثيـر، وينفق اليسيـر، قدّر غير مـا قدّره لنفسه، فوسّع له رزقه، وخفّف حسابه، فـأعطى ما يكفيه، ومنع ما يلهيه، فليس يرى شيئا يغنيه دون غنًى يطغيه، يعجز عن شكر ما أوتى، ويبتغى الزيادة فيما بقى، يستبطئ نفسه فى شكر ما أوتى، ويبتغى الزيادة فيـما بقى، يُنْهى فلا ينتهى، ويأمر بما لا يأتى، يهلك فى بغضه، ويقصّـر فى حبّه، غرّه من نفسه حبّـه ما ليس عنده، ويبغض ما عنده مثله، يحب الصـالحين ولا يعمل أعمالهم، ويبـغض المسيئين وهو أحدهم، يرجو الآخرة فى البغض على ظنه، ولا يخشى المقت فى اليقين من نفسه، لايقدر فى الدنيا على مـا يهوى، ولا يقبل مـن الآخرة ما يبـقى، يبادر من الدنـيا ما يفنى، ويـترك من الآخـرة ما يبـقى، إن عوفى حـسب أنه قد تـاب، إن ابتلى عاد يقـول فى الدنيا قـول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغـبين، يكره الموت لإساءته، ولا ينتهى عن الإساءة

فى حياته، يكره الموت لما لا يدع، ويحب الحـياة لما لا يصنع، إن مُنع من الدنيا لم يقنع، وإن أعْطِى منها لم يشبع، وإن عرضت الشهوة قال: يكفيك العمل، وإن عرض له العمل كسل وقال يكفيك: الورع، لا يُذهِب مخافـتَه الكسل، ولا تبعثه رغبتُه على العمل، يرجـو الأجر بغـير عمل، ويؤخـر التوبة لطول الأمل، ثم لا يسـعى فيـما له خُلِق، وزهادته فيـما أمر بـه من العمل، ويخشى الخلق فى ربِّـه ولا يخشى الربَّ فى خلقـه، يعوذ بالله مـمن هـو فوقـه، ولا يعـيذ بالله مـن هـو تحتـه، يخشى الموت، ولا يرجو الفـوت، يأمن ما يخشى وقد أيقن به، ولا ييـأس مما يرجو وقـد تيقن منه، يرجو نفع علم لا يعمل به، ويأمن ضُرّ جهل قد أيقن به، يسخر بمن تحته من الخلق، وينسى ما عـليه فيـه من الحق، ينظر إلى ما هو فـوقه فى الرزق، وينسى من تحـته من الخلق، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفـسه بأيسر من عمله، يبصر العورة من غيره، ويغفلها من نفسه، إن ذكر اليقين قال: ما هكذا من كان قبلكم.

فإن قـيل: أفلا تعمل أنت عـملهم؟ يقول: ومن يسـتطيع أن يكون مثلهم؟ فـهو للقول مـدل، ويستصـعب عليه العمل، يرى الأمـانة ما عوفى وأرضى، والخـيانة إن أسخط وابتلى، يلين ليحسـب عنده أمانـة، فهـو يرصـدهـا للخيانة، يتعلم للصداقة ما يرصد به للعـداوة، يستعجل بالسـيئة وهو فى الحسنة بطيء، يَخِفّ عليـه الشعر، ويثقل عليـه الذكر، اللغو مع الأغنياء أحبّ إليـه من الذكر مع الفقراء، يتـعجَّل النَّوم ويؤخر الصوم، فلا يبـيت قائما، ولا يصبح صائما، ويصبـح وهمّه التصبّح من النوم ولم يسهر، ويمسى وهمُّه العشاء وهو مفطر، إن صَلّى اعترض، وإن ركع ربض، وإن سجد نقر، وإن سـأل ألحف، وإن سُئِل سوّف، وإن حدَّث حلف، وإن حلف حنث، وإن وعد أخلف، وإن وعظ كلح، وإن مُدِح فرح، طلـبه شرٌّ، وتركه وزر، ليس له فى نفسه عن عيب الناس شغل، وليس له فى الإحسـان فضل، يميل لها ويحب لها منهم العدل، أهل الخيانة له بطانة، وأهل الأمانة له عداوة، إن سَلّم لم يُسمع، وإن سمع لم يرجع، ينظر نظر الحسود، ويعرض إعراض الحقود، يسخر بالمقتّر، ويأكل المدبّر، ويُرضِى الشاهد بـما ليس فى نفسـه، ويُسخط الغائب بمـالا يعلم فيـه، جرىء على الخـيانة، برىء من الأمـانة، من أحب كذب، ومن أبغض خلب، يضـحك من غـير العجب، ويمشى فى غير أدب، لا ينجو منه من جانب، ولا يسلم منه من صاحب، إن

حدثته ملّك ، وإن حدّثك غـمّك ، وإن سُؤتَه سرّك ، وإن رافقته حسـدك ، وإن خالفته مقتك ، يحسـد من فضله ، ويزهد أن يعمل عمله ، يعجز عن مـكافأة من أحسن إليه ، ويفرّط فيـمن بغى عليه ، ولا ينصت فيسلم ، ويتكلم بمالا يعـلم ، يغلب لسانُه قلبَه ، ولا يضبط قلبُـه قولَه ، يتعلّم للمـراء ، ويتفقّه للرياء ، ويظـهر الكبرياء ، فيظهـر منه ما أخفى ، ولا يخفى منه ما أبدى ، يبادر بالدنيا ، ويواكل بالتقوى اهـ[١] .

الحادية عشرة: وصيّة وهب بن منبه فى مكارم الأخلاق:

قال وهب بن منبـه : إذا أردت أن تعمل بطاعـة الله -عزّ وجلّ- فاجـتهـد فى نصحك وعملك لله ؛ فإن العمـل لا يقـبل ممّـن ليس بناصـح ، وإن النّصح لله - عزّ وجلّ- لا يكمل إلا بطاعة الله ، كمـثل الثمرة الطيبة ريحـها طيّب ، وطعمها طيّب ، كـذلك مثل طاعة الله : النّصْح ريحها ، والعمل طعمها ، ثم زيّن طاعة الله بالعلم ، والحلم ، والفقه ، ثم أكرم نفسك عن أخلاق السفهـاء ، وعبّدها على أخلاق العلماء ، وعودها على فـعل الحلماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وألزمهـا سيرة الفقهاء ، واعزلها عن سبيل الخـبثاء . وماكان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه معك ، فإن الحكيم يجمع فضوله ، ثم يعود بها على من دونه ، ثم ينظر فى نقائص من دونه ، ثمّ يقوّمها ويزجيها حتى يبلغه : إن كان فقيها حمل من لا فقه له ، وإذا رأى أنه يريد صحبته ومعونته . وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له ، وإن كـان مصلحا استغفر الله للمـذنب إذا رجا توبته ، وإن كان محسنا أحسن إلى من أساء إليه ، واستوجب بـذلك أجره ، ولا يغترّ بالقول حتى يجىء معه الفعل ، ولا يتمنَّى طاعة الله إذا لم يعمل بها . فإذا بلغ من طاعة الله شيئا حمد الله ، ثم طلب مالم يبلغ منها ، وإذا علم من الحكمة لم تشبعه حتى يتعلم مالم يبلغ منها .

وإذا ذكر خطيئته سترها عن الناس ، واستغفر الله الذى هو القادر على أن يغفرها ، ثم لا يستعين على شىء من قوله بالكذب ؛ فإن الـكذب فى الحديث مثل الآكلة فى الخشبة ، يُرى ظاهرها صحيحا ، وجوفها نخرا ، ولا يزال من يغـتربّها يظن أنها حاملة ما عليها حتى تنكسر على ما فيـها ، ويهلك من اغترّ بها ، وكذلك الكذب فى الحـديث ، لا يزال صاحبه يغترّ به ، ويظن أنه مـعينه على حاجته ، وزائـد له فى رغبته حتى يُعْـرف ذلك منه ، ويتبيّن

---

(١) انظر : أبا نعيم فى الحلية جـ٤/ ٢٦٠-٢٦٣ .

لذوى العقول غروره، ويستنبط العلماء ما كان يستخفى به عنهم، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره، وتبيّن لهم كذّبوا خبره، وأبادوا شهادته، واتهموا صدقه، واحتقروا شأنه، وأبغضوا مجلسه، واستخفّوا منه بسرائرهم، وكتموا حديثهم، وصرفوا عنه أمانتهم، وغيّبوا عنه أمرهم، وحذروه على دينهم ومعيشتهم، ولم يحضروه شيئا من محاضرهم، ولم يأمنوه على شىء من سرّهم، ولم يحكّموه فى شىء ممّا شجر بينهم. . . اهـ[1].

الثانية عشرة: وصيّة معاوية بن أبى سفيان لـ عبد الرحمن بن الحكم:

قال أبو القاسم بن عساكر:

قال معاوية - رضى الله عنه- لعبد الرحمن بن الحكم وقد وجده يميل إلى قرض الشّعْر: أراك تعجب بالشعر، فإن فعلتَ فإيّاك والتشبيب بالنساء، فإنك تغرى به الشريفة، وترمى به العفيفة، وتقرّ على نفسك بالفضيحة، وإيّاك والهجاء، فإنك تحنق به كريما، وتستثير به لئيما، وإياك والمدح فإنه كسب الوقّاح، وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزيّن به نفسك وشِعْرك، وتؤدّب به غيرك. . . اهـ[2].

الثالثة عشرة: وصيّة زياد بن أبيه لمن يوليه عملا:

قال أبو على القالى: كان زياد إذا ولّى رجلا عملا قال له: خذ عهدك، وسِرْ إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك، إنا إن وجدناك أمينا ضعيفا استبدلنا بك لضعفك، وسلّمَتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك قويّا خائنا استهنّا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وثقّلنا غرمك، وإن جمعت علينا الحرمين جمعنا عليك المضرّتين، وإن وجدناك أمينا قويا زدنا فى عملك، ورفعنا ذكرك، وكثرنا مالك. . . اهـ[3].

الرابعة عشرة: وصيّة عتبة بن أبى سفيان لأحد أبنائه:

قال ابن عبد ربّه: قال عتبة بن أبى سفيان لأحد أبنائه عندما بلغ سنّ الشباب: يا بُنىّ قد تقطعت عنك شرائع الصّبا، فالزم الحياء تكن من أهله، ولا يغرّنك من اغترّ بالله فيك فمدحك بما تعلم خلافه من نفسك، فإنه من قال فيك من الخير مالم يعلم إذا

(١) انظر: أبا نعيم فى الحلية حـ٤/ ٣٦-٣٧.

(٢) انظر: تاريخ دمشق الكبير حـ٩/ ٢٩١.

(٣) انظر: الأمالى لأبى على القالى حـ٢/ ٨٢.

رضى ، قال فيك من الشرّ مثله إذا سخط ، فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء تسلم من شرّ عواقبهم . . . اهـ[١] .

الخامسة عشر: وصيّة عبد الملك بن مروان لمؤدّب ولده:

قال ابن قتيبة: قال عبد الملك لمؤدّب ولده : علّمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنّبهم السّفلة فإنهم أسوأ الناس رِعَةً[٢] وأقلهم أدبا ، وأحْفِ شعورهم تغلُظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقوَوْا ، وعلّمهم الشِعر يمجُدوا وينجُدوا ، ومرهم أن يستاكوا عَرْضا ، ويمصّوا الماء مصّا ، ولا يعبّوه عبّا ، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر لايعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليه . . . اهـ[٣] .

- والله أعلم -

(١) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٣/ ١٥٤ .

(٢) يقال : فلان سيىء الرعة : إذا كان قليل الورع .

(٣) انظر : عيون الأخبار جـ٢/١٦٧ .

الموضوع الخامس

وصايا العصر العباسى

الأولى: وصية أبى جعفر المنصور إلى ابنه المهدى:

ومنها قوله : يا أبا عبد الله إنّى وُلِدت فى ذى الحجة ، ووليتُ فى ذى الحجة ، وقد هجس فى نفسى أنى سأموت فى ذى الحجة من هذه السّنة ، والذى حدا بى على الحج ذلك ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ، يجعل لك فيما كرَبك ، وحزنك مخرجا ، ويرزقك السلامة ، وحسن العاقبة من حيث لاتحتسب . احفظ يابُنىّ نبينا «محمداً» ﷺ فى أمّته يحفظ الله عليك أمورك ، وإيّاك والدّم الحرام ، فإنّه حَوْب عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لازم مقيم ، والزم الحلال ، فإنّ ثوابك فى الآجل ، وصلاحك فى العاجل ، وأقم الحدود ولاتعتد فيها فتبور ، فإنّ الله لوعلم أنّ شيئا أصلح لدينه ، وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به فى كتابه .

واعلم أن من شدّة غضب الله على سلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم فقال :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٣] .

فالسلطان يا بُنىّ حَبْل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودين الله القيّم ، فاحفظه ، وحُطْه ، وحصّنه ، وذبّ عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات بهم ، ولاتجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولاتُشطط ، فإنّ ذلك أقطع للشغب ، وأحْسم للعدوّ ، وأنجع فى الدواء ، وعفّ عن الفىء فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفّه لك ، وافتتح عملك بصلة الرّحم ، وبرّ القرابة .

وإياك والأثرَة ، والتبذير لأموال الرّعيّة ، واشحن الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمّن السّبل ، وخصّ الواسطة ، ووسّع المعاش ، وسكّن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ،

واصرف المكاره عنهم، وأعدّ الأموال واخزنها، وإياك والتبذير فإنّ النّوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمـونة، وهى من شِيم الزمان، وأعد الرجال، والكراع[1]، والجند ما استْطعتَ، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد فتتدارك عليك الأمور وتضيع، جِدّ فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أوّلا فأوّلا، واجتهد وشمر فيها، وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالا بالنهار لمعرفة مايكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك، ولاتضجر ولاتكسل ولاتفشل، واستعمل حُسْن الظنّ بربك، وأسئ الظنّ بعمّالك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقّد من يبيتُ على بابك، وسهّل إذنك للناس، وانظرفى أمر النزاع إليك، ووكل بهم عينا غير نائمة، ونفْسًا غير لاهية، ولاتنم فإنّ أباك لم ينم منذ ولى الخلافة، هذه وصيّتى إليك والله خليفتى عليك. . . اهـ[2].

الثانية: وصيّة المأمون بن هارون الرّشيد:

لأخيه المعتصم عندما حضره الموت إذْ قال له: يا أبا إسحاق ادْن منّى، واتّعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن، واعمل فى الخلافة إذا طوّقتها عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولاتغترّ بالله ومهلته، فكأن قد نزل بك الموت، ولاتغفل أمر الرّعية، الرّعيّةَ الرّعيّةَ العوامَّ العوامَّ، فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين، والمنفعة لهم، اللهَ اللهَ فيهم وفى غيرهم من المسلمين، ولاينهينّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين، ومنفعة لهم إلا قدّمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولاتحمل عليهم فى شىء، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم، وقرّبهم وتأتهم، وعجل الرّحلة عنّى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلاتغفل عنهم فى كلّ وقت، والخُرّمية[3] فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلَد، واكنفه بالأموال، والسلاح، والجنود من الفرسان، والرّجالة، فإن طالت مدّتهم فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل فى ذلك عمل مقدّم النيّة فيه، راجيا ثواب الله عليه، واعلم أن العظَة إذا طالت أوجبت على السامع لها، والموصِى بها الحجّة، فاتق الله فى أمرك ولاتُفْتتن. . . اهـ[4].

---

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٢) انظر: تاريخ الطبرى جـ٨/ ١٠٥-١٠٦.
(٣) الخُرّمية: هم أتباع بابك الخُرّمى وهو: رجل فارسى مجوسىّ دخل فى الإسلام تظاهرًا، ولكنه كان خبيثا استحلّ المحرمات هو وأتباعه، وقد حاربه المأمون.
(٤) انظر: تاريخ الطبرى جـ ٨/ ٦٤٨-٦٤٩.

الثالثة: وصيّة طاهر بن الحسين لولده إذ قال له:

أحسن الظنّ بالله - عزّ وجلّ - تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إلى الله فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تُنهض أحداً مـن الناس فيما توليه من عملك قبل تكشّف أمره بالتّهمة فـإنّ إيقاع التّهم بالبرآء، والظنون السيئة بهم مـأثم، واجعل من شأنك حسن الظنّ بأصحابك، واطرد عنهم سوءالظنّ بهم، وارفضه عنهم يُعنك ذلك على اصطناعهم، ورياضتهم، ولا يجـدنّ عدو الله الشيطان فى أمرك مـغمزا، فإنه إنمـا يُكتفى بالقليل من وهنك فيُدخل عليك من الغمّ فى سوء الظنّ ما ينغص لذاذة عيشك. . . اهـ[1].

الرابعة: وصيّة هارون الرشيد لمؤدّب ولده الأمين:

قـال خلف بن حيّـان الأحمـر النحـوىّ (ت ١٨٠هـ): بعث إلىّ هارون الرشيـد لتأديب ولده محمـد الأمين فلمّا دخلت قال: يا أحْمَرُ إنّ أميـر المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفـسه، وثمرة قلبه، فصيـر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليـه واجبة، فكن له بحيث وضعـك أمير المؤمنين: أقـرئه القرآن، وعرِّفه الآثار، وروِّه الأشعـار، وعلّمه السّنن، وبصِّره مـواقع الكلام وبدأه، وامنعه الضّـحك إلا فى أوقاته، وخـذه بتعظيم مـشايخ (بنى هاشم) إذا دخلوا علـيه، ورفع مـجالس القـوّاد إذا حضـروا مجلسـه، ولاتمرنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فـائدة تفيده إيّاها، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولاتمعن فى مسـاحته فيستـحلى الفراغ، ويألفه، وقوِّمه مـا استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة. . . اهـ[2].

الخامسة: وصيّة عبد الملك بن صالح لمؤدّب ولده:

إذ قال له: كن على التماس الحظّ بالسّكوت أحرص منك على التماسه بالكلام؛ فإنهم قالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعـجبك الصمت فتكلّم، ولاتساعدنى على مـا يقبح بى، ولاتردّنّ علىّ الخطأ فى مـجلسى، ولاتكلفنى جـواب التشـميت والتهنئة، ولاجواب السؤال والتعـزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وأمسى؟ وكلّمنى بقدر ما استنطـقتك، واجعل بدل التقريظ لى حسن الاستـماع منّى، واعلم أنّ صواب الاستـماع أقلّ من صـواب القول، وإذا سمـعتنى أتحـدث فأرنى فهـمك فى طرْفك

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى حـ٨/ ٥٩١.

(٢) انظر: مروج الذهب للمسعودى حـ٣/ ٣٥١.

وتوقُّفك، ولاتجهد نفسك فى تطرية صوابى، ولاتستدع الزيادة من كلامى بما تظهر من استحسان مايكون منّى، فَمَنْ أسوأ حالا ممن يستكد الملوك بالباطل؟ فيدلّ على تهاونه، وما ظنك بالملك وقد أحلّك محلّ المعجب بما تسمع منه، وقد أحللته محلّ من لايُسْمع منه؟، وأقلّ من هذا يُحْبِط إحسانك، ويُسْقِط حقّ حُرْمتك إن كانت لك.

إنى جعلتك مؤدّبا بعد أن كنت معلّما، وجعلتك جليسا مقرّبا بعد أن كنت مع الصبيان مباعَدا، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رجحان مادخلتَ فيه، ومن لم يعرف سوء ما يُولى لم يعرف حسن ما يَلِى... اهـ[1].

السادسة: وصيّة أبى جعفر المنصور لعيسى بن موسى:

لـمّا أرسله إلى مقاتلة العلويّين الذين ناوءوه بالمدينة المنورة، إذْ قال له: يا أبا موسى إذا صِرتَ إلى المدينة فادع محمد بن عبد الله بن الحسين إلى الطاعة، والدخول فى الجماعة، فإن أجابك فاقبل منه، وإن هرب فلاتتبعه، وإن أبى إلا الحرب فناجزه، واستعن بالله عليه، فإذا ظفرتَ به فلا تُخيفَنّ أهل المدينة، وعُمَّهم بالعفو، فإنّهم الأهل والعشيرة، وذرّية المهاجرين والأنصار، وجيران قَبْر النبىّ ﷺ. وصيتى إليك لا كما أوْصى بها (يزيدُ بنُ معاوية)مُسْلمَ بنَ أبى عقبة (ت ٦٣ هـ): حين وجّهه إلى المدينة، وأمره أن يقتل من ظهر إلى ثنية الوداع، وأن يبيحها ثلاثة أيام، ففعل، ثمّ اكتب إلى أهل مكة بالعفو عنهم والصفح، فإنهم آل الله، وجيرانه، وسكان حرمه وأمْنه، ومنبت القوم والعشيرة، وعظماء البيت والحرم، فإنه حرم الله الذى بعث منه «محمدًا» نبيه ﷺوشرف به آباؤنا بتشريف الله إيّانا. فهذه وصيتى... اهـ[2].

السابعة: وصيّة عطاء بن أبى رباح إلى عبدالملك بن مروان:

وذلك أنّ عطاء بن أبى رباح دخل على عبدالملك بن مروان وهو جالس على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة المكرمة في وقت حجّه فى خلافته، فلمّا بصر به قام إليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد ما حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلستَ هذا المجلس.

---

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة حـ١/ ٢١. (٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٥/ ٨٦-٨٧.

واتّق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن للمسلمين، وتفقّد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فى مَنْ على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال له: أفعل، ثمّ نهض وقام، فقبض عليه عبدالملك وقال له: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: مالى إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبدالملك: هذا الشرف، وهذا السؤدد... اهـ[1].

الثامنة: وصيّة رجل من المسلمين إلى هشام بن عبدالملك:

فقد جاء رجل إلى هشام بن عبد الملك، ولم يتكلم، فقال هشام: مالك لا تتكلم؟ قال: هيبة الملك، فلمّا رجعت نفسه إليه قال له هشام: تكلّم وإيّاك ومدحنا.

فقال: لستُ أمدحك، وإنما أحمد الله فيك، ثمّ قال: إنَّ الدنيا ذُمَّت بأعمال العباد، إذا أساءوا، ولم تُحْمد بأعمالهم فيها إذا أحسنوا، فإنّ الدنيا لم تكتتم بما فيها فتذم، ولكن إنما جهرت به فأخذها من أخذها بذلك وهى عليه، وتركها من تركها لذلك وهى له.

وإن الدنيا بادأت أهلها بأنها مملوكة لمن أخذها، ومفارقة من صحبها، ونحن بها عمران من عمرها، فمن زرع فيها سروراً حصد حزناً، ومن آثر فيها هوى اجتنى ندامة، وإنما هى لمن زهد فيها اليوم وأعرض عنها، وآثر الحقّ عليها، وأخذها مَنْ أخذها بعد البيان منها، والإخبار عن نفسها، فغرّ نفسه وسمّاها غرّارة، وكذّب نفسه وسمّاها كذّابة، وزهد فيها آخرون فصدّقوا مقالها، ورأوا آثارها فى ردّ أفعالها، وأخذوا منها قليلا وقدموا فيها كثيراً، وسلموا من الباطل، وصارت لهم عَوْنا على الحق فى غيرها، فلم تحمد بإحسان من أحسن فيها وهى له، وذمّت بإساءة من أساء فيها وهى عليه... اهـ[2].

التاسعة: وصيّة طاووس اليمانى إلى هشام بن عبدالملك:

وذلك أنه لما قدم هشام بن عبدالملك مكة المكرمة حاجّا، قال: ائتونى برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا.

فقال: من التّابعين، فَأُتى بطاووس اليمانى، فلمّا دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلّم عليه بإمرة المؤمنين، ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يكنّه، وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام؟.

---

(١) انظر: الذهب المسبوك ص ١٦٤، وسير اعلام النبلاء جـ٥/ ٨٤.

(٢) انظر: الذهب المسبوك ص١٨٧-١٨٨.

فغضب هشام غضبا شـديدًا، حتّى همّ بقتله. فقيل له: أنت فى حرم الله، وحرم رسوله ﷺ، ولا يمكن ذلك، فقال: يا طاووس ما الذى حملك على ما صنعتَ؟

قال: ما الذى صنعتُ؟ فازداد غضبا وغـيظا، فقال هشام: خلعتَ نعليك بحاشية بساطى، ولم تقبّل يدى، ولم تسلّم بإمرة المؤمنين، ولم تكنّنى، وجلستَ بإزائى بغير إذنى، وقلت: كيف أنت يا هشام؟

فقال: أمّـا ما فعلتُ من خلع نعلىَّ بحاشـية بساطك فإنّى أخلعـهما بين يَدَىْ ربِّ العزّة كل يوم - خمس مرّات -، ولا يعاقبنى، ولا يغضب علىّ.

وأمّا قولك: لم تقبّل يدى، فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضى الله عنه- يقـول: لا يحلّ لرجل أن يقـبل يد أحـد إلا امرأته مـن شهـوة، أو ولده من رحمـة، وأمّا قولك لم تسلّم علىّ بإمـرة المؤمنين، فليس كل الناس راضـين بإمرتك فكرهـتُ أن أكذب، وأمـا قـولك: لم تكنّنى، فإن الله سـمّى أنبيـاءه وأوليـاءه فقـال: يا داود، يا يحيى، يا عيسى، وكنّى أعداءه فقال: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١].

وأمّا قولك: جلستَ بإزائى، فإنّى سمـعت أمير المؤمنين عليًا - رضى الله عنه- يقول: إذا أردتَ أن تـنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجـل جالس وحولـه قوم قيام. فقال هشام: عظنى،

فقال: سمعت من أمير المؤمنين علىٍّ - رضى الله عنه - يقول: إنّ فى جهنّم حيّات كالقلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته، ثمّ قام وهرب. . . اهـ[1].

العاشرة: وصيّة شقيق بن إبراهيم البلخىّ لهارون الرشيد:

وذلك: أنّ شقيقـا البلخىّ قدم بغداد على عهد هارون الرّشيـد فلمّا علم به أمر بإحضاره فلما دخل عليه قام هارون من مجلسه، وأجلسه إلى جانبه، وقال: ياشقيق ما أشوقنى إليك وأحب أن توصنى، فقـال: يا أمير المؤمنين إنّ الله أنزلك منزلة أبى بكر الصدّيق، ويطلب منك الصدق، وأنزلك منزلة الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحقّ والباطل، وأنزلك منزلة عثمان ويطـلب منك الحياء والسخاء، وأنزلك منزلة علىّ ويطلب منك العلم والحلم.

(١) انظر: الجليس الصالح والأنيس الناصح ص ٢١٧.

فأطرق هارون ساعة، ثم رفع رأسه فقال: كيف لي أن أعمل بالصّدق؟ قال: تعلم أنك أجير ولستَ بأمير، وأن تعلم أنك فقير ولست بغنىّ، وأن تعلم أنك عبد ولست بحُرّ، فأطرق هارون، ثم رفع رأسه، وقال: كيف لي أن أفرق بين الحقّ والباطل؟

قال: أن تجعل الناس على ثلاثة أصناف: صنف أكبر منك، وصنف أصغر منك، وصنف مثلك: فاجعل كبير المسلمين عندك والدا، وأوسطهم أخا، وأصغرهم ولدا، فوقّر أباك، وأنصف أخاك، وتحننّ على ولدك، فأطرق هارون ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: كيف أعمل بالحياء والسخاء؟

قال: أن تستحي من مولاك كما تستحي من جيرانك، وأن تجعل نفسك وكيلا لجميع الخلائق في هذا المال الذي عندك، فأطرق هارون ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كيف لي أن أعمل بالعلم والحلم؟

قال: أطع مولاك، واعص هواك، فقال هارون: زدني. قال: اعلم أن الله خلق نارًا فسمّاها جهنّم وجعلك بوّابها، وأعطاك بيت المال، والسيّف، والسّوْط؛ وأمرك أن تعطي بيت المال مَنْ مال إلى المعصية لأجل الفقر كيلا يدخلها، وأمرك أن تقتل بالسيّف من قتل نفسا بغير نفس، أو بغير حقّ كيلا يدخلها، فقال هارون: أحرقتني يا (شقيق) زدني، فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنك عيْن، وعمّالك أنهار، فإن صفَت العيْن صفَت الأنهار، وإن تكدّرت العيْن تكدّرت الأنهار، وإن لم يكفك هذا فلامطمع لي فيك. فبكى هارون، ثم نزع خاتمه، وألقاه إليه، وقال: اعمل في هذه الأمة بالسّنة. قال شقيق: على أن تقضي لي حاجتي، قال: حاجتك مقضيّة قال: لا تدعُني حتى آتيك، ولاتعطني حتى أسالك، قال: قد قضيت حاجتك، وطرح الخاتم، وخرج، وقال: لا آتيك أبدًا، ولا أسالك أبدًا.. اهـ[1].

(١) انظر: الجليس الصالح، والأنيس الناصح ص ٢١٦.

الموضوع السادس

مواعظ مفيدة

أولا: الدعوة إلى الإسلام:

إن من أولى الخطوات التى قام بها الرسول ﷺ فى مجال تبليغ رسالته إلى الناس: أن دعاهم إلى الإسلام، والتصديق به فى بيان مشرق، وبلاغة معجزة، أسرت العقول بجمالها، واستولت على القلوب بقوّة تأثيرها، يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه.

فهى إن لم تكن من الوحى، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله.

وقد جسّم الجاحظ هذه الخاصيّة فى بيان الرسول ﷺ فوصف كلامه بقوله: هو الكلام الذى قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلّف.

إلى أن قال: لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نَفْعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين فى فَحْوى من كلامه ﷺ ... اهـ[1].

وجاءت دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام حافلة بالقيم الخالدة، والمعانى السامية، التى تهدى البشرية إلى رضوان الله تعالى فى أساليب سهلة واضحة، وألفاظ رشيقة سلسلة.

وقد قال أحد الباحثين وهو الدكتور بكرى شيخ أمين: هذه الفصاحة من نبينا «محمد» ﷺ توفيق من الله تعالى، فهو الذى بعثه الله فى قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهودة فى البيان، والفصاحة، ولا بدّ له من لسان أفصح من ألسنتهم لينقادوا له ويخضعوا.

كل هذا جعل الحديث النبوىّ فى مرتبة من الفصاحة لا تدانى، ودفع الأدباء إلى استظهار عبارات الرسول ﷺ، والاقتباس منها، والاستعانة بها فى شعرهم، ونثرهم، وخطبهم؛ لتسمو فوق كلام الناس، وليكون لها من العقل الأفضل ما ليس لكلام الآخرين. اهـ[2].

---

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ جـ٢/ ١٧-١٨.

(٢) انظر: أدب الحديث النبوى للدكتور/ بكرى شيخ أمين. ط دار الشروق (بيروت) ص ١٠٤.

ثم لم يدع النبى ﷺ أمـرًا من أمـور الدنيـا والآخـرة إلا نبّـه الناس إليـه، ودعاهم إلى خـيره، ونهاهـم عن شرّه، كل ذلك أعلنه لهم منذ أن أمـره الله تعالى بالجهر بالدعوة إلى الإسلام فى قوله تعالى:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر: ٩٣-٩٤]

ثم توالت آيات القرآن الكريم تنادى المؤمنين بالدّعوة إلى الله - تعالى-، وتحث عليها، وتبيّن أنها قوام حيـاة هذه الأمّة، وإنّ نظرة فى خطبته ﷺ لمّا نزل عليه قول الله - تعالى-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

لَتُبيِّن للمتأمّل قدرته -عليه الصلاة والسلام- على استجماع القلوب، والأذهان، فى أحاديثـه للناس، وطريقتـه فى عرض دعوته إليـهم، واعتمـاده ﷺ على الجانب الوجدانى فى الإقناع.

فعن ابن عـباس (رضى الله عنهما - ت ٦٨هـ) قـال: لـمّا نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صـعـد النبىُّ ﷺ علـى الصفـا، وجعـل ينادى: **«يا بنى فهر، يا بنى عدىّ»** لبطون قريش، حتى إذا اجتمـعوا، وجعل الرجل إذا لم يستطعَ أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فـجاء أبو لهب فقال النبى ﷺ: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خَيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكـنتم مصدّقىّ؟»**، قالوا: نعم ما جرّبنا عليك إلا الصدق.

قال: **«فإنّى نذير لكم بين يدَىّ عذاب شديد»**، فقال أبو لهب - عليه لعنة الله-: تبّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟

فنزل قـول الله تعـالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ [المسد: ١-٢].

لقد أعلن النبىُّ ﷺ رسالته إليهم من خلال موقف شـعورى حين حفز انتباههم بالمثَل البليغ الذى ساقه بوجود الخَيْل المغيرة عليـهم، للتدليل على مدى ثقتهم به - عليه الصلاة والسلام-، ثم استخلص منهم الاعتراف بمصداقية قوله، وعدم الشك فيما يقول..

وفى خطبة الـنبى ﷺ أوّل جمعـة صلاّها بالمـدينة المنورة نجده - عليـه الصلاة والسلام - يقول: «الحمد لله، أحمده، وأستعـينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادى مَنْ يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا

عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور، والموعظة على فترة من الرسل، وقلّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنوّ من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط، وضل ضلالا بعيدًا» اهـ[١].

يتضح من استعراض خطبه ﷺ التى تناولت الدعوة إلى الإسلام، والتمسّك به أنها تأثّرت بالمرحلة والبيئة التى قيلت فيها: إذ نستطيع أن نتبيّن أن خطبه -عليه الصلاة والسلام- فى مكة كانت تركز على التوحيد، وغرس العقيدة، وتجنب عبادة الأوثان فى عبارات موجزة مركزة.

وأن خطبه فى المدينة التى تناولت الدعوة إلى الإسلام اتسمت بسعة القول، وقدر من التحليل والشرح؛ وذلك لأن المدينة ضمّت الكثير من فئات المجتمع، والقبائل، والأحلاف.

ونهج الصحابة - رضوان الله عليهم - منهج الرسول ﷺ فى اتخاذ الخطب وسيلة للدعوة إلى الإسلام، والإعلان عن مبادئه... اهـ[٢].

ثانيا: الدعوة إلى العلم:

جاء الإسلام يدعو إلى الأخذ بأسباب العلم، وينتشل البشرية من ظلام الجهل، وضلال الشرك، إلى نور الحقّ والإيمان، ولذا كانت أوّل آية نزلت على رسول الله ﷺ قول الله - تعالى -:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

ومدح الله - سبحانه وتعالى- العلم وأهله فى كتابه الكريم بآيات كثيرة، وكذلك أثنى رسول الله ﷺ على العلماء، وبيّن مكانتهم فى الإسلام، وحثّ على طلب العلم، والاشتغال به، والتزوّد منه، والحرص عليه.

ولمّا كانت حاجة المسلم إلى العلم ماسّة لمعرفة أحكام دينه، وأصول شريعته، ومعرفة الحلال والحرام، وما يقرّبه من ربّه: فقد انبرى العلماء يتناولون فى خطبهم حث الناس على التعلّم حتّى يؤدّوا فرائض الله صحيحة، ويعرفوا حدود ما أمر الله، وما نهى عنه.

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى ط بيروت جـ٢/ ٣٩٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد) جـ٢/ ١٧٣.

وأدرك العلماء أن فى انتشار العلم بين الناس ما يقوّى العقيدة فى نفوسهم، ويحملهم على طاعة الله، والتزام شرعه، وتجنُّب المعاصي.

فكانت الغاية من الدعوة إلى العلم فى بداية الأمر، هى اكتساب العلم الدينى لمعرفة حدود الله، ووجد الخطباء من أحاديث الرسول ﷺ فى الحثّ على طلب العلم معينا لا ينضب، فمن ذلك قول النبىّ ﷺ:

«تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قربة، والعلم منار سبيل أهل الجنّة، والأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدِّث فى الخلوة، والدليل على السرّاء والضرّاء، والزّين عند الأخلاّء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله به قوما فيجعلهم قادة تُقتفى آثارهم، ويُقتدَى بفعلهم، والعلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوّة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العُلى فى الدنيا والآخرة، الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبه توصل الأرحام، ويُعرف الحلال من الحرام»اهـ[1].

ففى ذلك ما يدلّ على تشبُّع الصحابة بفكرة العلم فى الإسلام، وأهميّته للناس، ودعوته إيّاهم للأخذ بأسباب العلم، والتفقُّه فى الدين.

ولذا نجد عليّا - رضى الله عنه- يوازن بين العلم والمال، فيجعل المال خادما للعلم، فيقول: العلم خير من المال؛ لأن المال تحرسه، والعلم يحرسك، والمال تفنيه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، مات خزّان المال وهم أحْياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم فى القلوب موجودة... اهـ[2].

وفى ذلك حث صريح على طلب العلم، وتقديمه على المال، وبيان منزلة العلماء ليُقبل الناس على العلم بنفس راضية، ورغبة ملحّة؛ ففيه الرفعة فى الدنيا والآخرة.

ولذا نجد عبدالملك بن مروان يقول لبنيه: يا بَنِىّ تعلموا العلم، فإن استغنيتم كان لكم كمالا، وإن افتقرتم كان لكم مالا... اهـ[1].

وقد أثمرت هذه الدعوة بين الأفراد إلى مختلف الجوانب الفكرية التى شاعت فى عصور الإسلام الزاهية.

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٢/ ٢١٥-٢١٦.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٢/ ٢١٢.

ثالثا: الحث على الجهاد:

تواردت الأدلّة من الكتاب والسنة على بيان أهميّة الجهاد، وبيان فضله فى حياة الأمّة، وأنه أساس عزّها، ومجدها، وسعادتها فى الدنيا والآخرة.

يقول الله - سبحانه وتعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

[الصف: ١٠-١٣]

ويقول الله - سبحانه وتعالى -:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١١١]

وكذلك نجد الأحاديث الصحيحة تبشر المجاهدين بالثواب الجزيل، كما نجد الرسول ﷺ يقف فى الناس خطيبا يوم أُحُد، فيقول: «**يا أيها الناس أوصيكم بما أوصانى الله فى كتابه من العمل بطاعته، والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجْر وذخر لمَنْ ذكر الذى عليه، ثم وطّن نفسه على الصبر واليقين والجدّ والنشاط، فإنّ جهاد العدوّ شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم له على رشده.**

إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذى آمركم به؛ فإنّى حريص على رشدكم، إنّ الاختلاف والتنازع، والتثبيط من أمر العجز والضعف ممّا لا يحبّ الله؛ ولا يعطى عليه النصر»اهـ[1].

كما كان النبىّ ﷺ يحضّ المؤمنين على الجهاد، ويحرّضهم على لقاء العدوّ قبل وقوع المعركة؛ حَفزاً لهممهم، وتثبيتا لقلوبهم: فقد كان يعقّب على المعركة بخطبة

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ جـ١/٥٦.

يبين الكثير من الأحكام للمجاهدين، كما فعل فى خطبته يوم فتح مكة حيث بيّن فيها كثيرًا من الأحكام فى خدمة البيت الحرام، وأنواع القتل، والديّة، ثم التفت إلى قريش التى ألقت عصاها بين يديه، فقال لهم: «يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» اهـ[1].

ومضى الخلفاء الراشدون، وقادة الجيوش الإسلامية التى حملت رايات الجهاد إلى أصقاع العالم على هذا المنوال: يعبّئون الطاقات، ويحفزون الهمم، ويستثيرون الحماس، ويذكّرون المجاهدين بما أعدّه الله لهم من الأجر والمثوبة.

فكانت هذه الكلمات الصادقة المؤثرة التي تنبعث على ألسنة الخلفاء، والقادة العسكريين مؤجّجة لعواطف الخير، والبرّ فى نفوس الجند والمجاهدين؛ فخاضوا المعارك ببسالة لا يَلْوُون على شىء إلا نشْر هذا الدين، وإعلاء كلمة التوحيد فى كلّ أصقاع المعمورة.

فى يوم اليرموك جمع خالد بن الوليد الفرق الإسلامية فى جيش واحد، وجمع الأمراء فخطبهم وقال: إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإنّ هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعْبية، بل على تساند وانتشار، وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى واليكم ومحبته... اهـ[2].

فنحن نجد أن خالدًا قد رسم للمجاهدين خطة الدفاع فى وجه عدوّهم، وطريقة الهجوم عليهم بما يحقق لهم النصر على أعدائهم.

وهذا عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- لمّا تجمّعت جيوش الفرس بنهاوند، وأخبره سعد بن أبى وقّاص بذلك قام عمر على المنبر خطيبا، فأخبر الناس، واستشارهم، وقال: هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإنّى قد هممتُ بأمر وإنّى عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبرونى وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تكثروا ولا تطيلوا، أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى، ومن قدرت عليه، حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين، فأستنفرهم، ثم أكون لهم ردءًا، حتى يفتح الله عليهم، ويقضى ما أحبّ؟ فأجابه الصحابة برأيهم... اهـ[3].

(١) انظر: كتاب المغازى لابن واقد جـ١/ ٢٢١-٢٢٢.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام جـ٤/ ٣٢.
(٣) انظر: تاريخ الطبرى جـ٣/ ٣٩٥.

فى هذه الخطبة ما يدلّ على الشورى الإسلاميّة التى عمّت أرجاء الحياة حتّى لم تخل منها سياسة الحروب على الرغم من طبيعتها العسكرية، وفيها ما يدلّ على حرص عمر - رضى الله عنه- على صلابة الجبهة الداخلية.

وكلما مضينا مع الزمن وجدنا هذا التراث الخطابى يتزايد يوما بعد يوم؛ لتعدّد نواحى الجهاد.

ولهذا نجد عليّا بن أبى طالب - رضى الله عنه- يقول: إن الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذلّ، ولزمه الصّغار، وسيمَ الخسف، ومُنِع النَّصَف، ألا وإنّى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً، وسرا وإعلانا، وقلتُ لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم قطّ فى عقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولى، واتخذتموه وراءكم ظهريّا، حتّى شُنّت عليكم الغارات: هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حسّانا، أو ابن حسّان البكْرى، وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالا صالحين، ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة، والأخرى المعاهدة فينزع حِجْلَها، وقُلبَها، ورعاثها، ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منهم كلما، فلو أنّ امرءاً مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان عندى به ملوما، بل كان به عندى جديراً . . . اهـ[1].

وهكذا نجد عليّا -كرّم الله وجهه- يحث أصحابه على قتال سفيان بن عوف الأزدىّ الذى قتل حسّانًا البكرى واليه على الأنبار، واستباح حمى المسلمين، واستاق خيلهم، وغنم مكاسبهم، واعتدى على حرماتهم، فيذكرهم بالجنّة التى تطمح إليها نفوس المؤمنين، ويجعل الجهاد بابا من الأبواب الموصلة إليها، ثم يبيّن الآثار المترتبة على ترك الجهاد، وما يلحق الفرد والمجتمع من الذلّ والصَّغار، ويندبهم إلى قتال أعدائهم؛ ليكونوا البادئين فى القتال، ويقرّر مبدأ عسكريا حين قال: والله ما غزى قوم قطّ فى عقر دارهم إلا ذلّوا.

ويستثير هممهم بذكر ما أوقعه العدوّ فى المسلمين من خسائر، وغنائم، واعتداء على الحرمات، والأعراض؛ ليستثير حميّتهم ويبعث عزائمهم، ويوحّد صفوفهم لقتال هؤلاء المارقين.

(١) انظر: تاريخ الطبرى جـ٤/ ١٢٣.

ولمَّا صالح قتيبة بن مسلم أهلَ خوارزم وسار إلى السُّغْد سنة ثلاث وتسعين هجريّة خطب الناس فقال: إنّ الله قد فتح لكم هذه البلدة فى وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السُّغْد شاغرة برطبها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، ومنعونا ما كنّا صالحنا عليه طَرْخون وصنعوا ما بلغكم، فسيروا على بركة الله فإنّى أرجو أن تكون خُوارزم، والسُّغُد كالنّضير، وقريظة. اهـ[1].

فنحن نجد قتيبة يذكر الناس بمجدهم، ومكانتهم، ويحثهم على طلب الثواب من الله - تعالى -.

رابعًا: التذكير بالثواب والعقاب:

كثيرا ما كانت المساجد فى القرون الأربعة الأولى من الهجرة النبوية حافلة بالخطب الدينية التى تذكر المؤمنين بما وعدهم الله - تعالى- من الثواب، ووعيده للكافرين بالعقاب، وفى مقدّمة هذه الخطب: خطب النبىﷺ، فقد كانت المنهل العذب الذى نهل من معينه الصحابة، والتابعون، وسائر الأمّة الإسلامية، وكان التركيز على هذا النوع من الخطب؛ لأنه الثمرة الطبيعية للإيمان، والنتيجة الصادقة لاعتناق الإسلام، ولأنه الأصل الأصيل فى نظرية الأديان، إذ إن من لوازم الإيمان بالله الاعتقاد بوقوع الثواب لمن أطاعه، وحصول العقاب لمن عصاه، ولن نجد عقيدة تقرر الإيمان بالله لا تصل إلى الإيمان بثمرات العمل، وما يحصل عليه المرء فى آخرته من ثواب وجزاء.

ولهذا نجد الرسولﷺ قد حرص كل الحرص على إرساء هذا المبدأ، وتقريره فى نفوس المؤمنين حتى يصل منه إلى صحّة العقيدة، وإلى صدق الإيمان، وما يترتب على ذلك من تقويم السلوك، وتهذيب النفوس، وتربية الأخلاق.

ومن ذلك قولهﷺ فى أول خطبة خطبها بالمدينة المنورة بعد أن حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله: «**أمّا بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم تعلمنّ والله ليُصْعَقنّ أحدكم ثم ليدع غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنّ له ربّه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك؟ وآتيتك مالا، فما قدّمتَ لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثمّ ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقّ تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة؛ فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته**» اهـ[2].

(١) انظر: تاريخ الطبرى جـ٦/ ٤٧٢.
(٢) انظر: سيرة ابن هشام جـ٢/ ١١٨.

من هنا نجد أن الرسول ﷺ قد ربط السلوك فى الدنيا : صالحا كان ، أو سيئا بالجزاء فى الآخرة ثوابا كان أو عقابا ، فمن أعرض عن الرسالة ، وكفر بنعمة الله ، ولم يؤدّ حقّ الله عليه ، فلن يجد قدّامه غير جهنم تلفح وجهه ، وتحرق جسده ، أعاذنا الله من ذلك ، ومن قدّم خيراً أو عمل صالحا -ولو قليلا- فإنه يثاب بقدره حتى تبلغ الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

ومن ذلك قول الخنساء -رحمها الله تعالى- تحرض أولادها على القتال فى معركة القادسية - وكانوا أربعة رجال : تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين . واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله - عزّ وجلّ - :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]
فإذا أصبحتم غداً فاغدوا على قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنفرين ، فلمّا بلغها خبر استشهادهم قالت : الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربّى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ رحمته . . . اهـ[١] .

ولعلّ من أبرز الجوانب التى تستوقف الناظر فى الخطب التى تناولت الحديث عن الثواب والعقاب أمرين :

الأمر الأول : كثرة الحديث عن الزّهد ، والدعوة إليه بتهوين شأن الدنيا ، والتقليل من بهجتها ، وكفّ الناس عن الانشغال بها ، إذْ إن ذلك مدعاة لنسيان اليوم الآخر ، والحدّ من القيام بالواجبات والفرائض ، والزهد فى الدنيا يحدّ من هذه الأمور ، ويقلل من الانشغال بملذاتها ، ويساعد على الاستعداد لليوم الآخر .

ونجد هذه الفكرة شائعة لدى أكثر الخطباء ، بل تشغل النصيب الأوفى من خطبهم ، ودعوتهم على نحو ما نجد ، فنجد قُطْرُبا يحذّر من الدنيا ، ويزهد فيها ، ويركز على الجانب السيىء منها الذى يكبّر الخطوب ، والنوائب ، فلا يكاد يرى غيره فيما يقع عليه حسّه وبصره ، رغبة فى تنفير الناس منها ، والتقليل من شأنها ؛ ليتجهوا إلى زاد الآخرة ، والاستعداد لما بعد الموت .

وخطب الحسن البصرىّ -رحمه الله- فقال : يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فتنافس فيه ، وإذا رأيتهم فى الشرّ فلا تغبطهم عليه ، الثواء هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل . ذهبت الدنيا بحليّها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم ، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ، أعدّوا الجواب فإنكم

---

(١) انظر: خزانة الأدب، لعبد القادر البغدادى جـ١/ ٣٩٦.

مسئولون، المؤمن من لم يأخذ دينه على رأيه، ولكنه أخذه من قبل ربّه، إنّ هذا الحق قد مهد أهله، وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله، ورجا عاقبته، فمن حمد الدنيا ذمّ الآخرة، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه. اهـ[١].

والأمر الثانى: الإكثار من ذكر الموت باعتباره نهاية كل حىّ، والتخويف ممّا بعد الموت، والاستعداد له بعمل الصالحات، والتفكير فى سير السابقين، وما آلوا إليه، وذكر الآباء والأسلاف والعظماء والأمجاد.

وتتناول هذه القضية من زاوية إيمانية يكمل النظريّة السابقة وهى الزهد فى الدنيا، والاستعداد للقاء الله، وطلب الثواب منه، كما فى خطبة النبى ﷺ إذ قال:

«أيها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» اهـ[٢].

وعلى هذا النحو كثير من خطب عمر بن عبدالعزيز، و الحسن البصرى -رحمهما الله- التى أخذت بمجامع الناس، وهزّت عواطفهم، وأبكت عيونهم.

يقول عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله -: ما الجزع ممّا لابدّ منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما لايزول؟، وإنما الشىء من أصله، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟

إنما الناس فى هذه الدنيا أغراض تُنتَضلُ فيها المنايا، وهم فيها نهب للمصائب، مع كل جرعة شرق، وفى كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمّر من معمّر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، وأنتم أعوان الحقوق على أنفسكم، فأين المهْرب ممّا هو كائن؟ وإنما نتقلّب فى قدرة الطالب، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً... اهـ[٣].

---

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ١٣٢-١٣٤.

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ جـ١/ ٣٠٢.

(٣) انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى جـ٣/ ١٨٤.
وانظر: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز لأبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ص ٢٥٠،
وانظر: الأمالى لأبى على القالى جـ٢/ ١٠٠.

خامساً: الوعظ فى مجالس الخلفاء:

مما تحسن الإشارة إليه أن المواعظ لصيقة بالخطيب؛ لأن الخطيب أحيانا يجد فى الموعظة طريقا رحبا يرقق قلوب سامعيه، ويشد انتباههم، ويكبح جماح من انحرف منهم، إلا أن المواعظ أوسع بابا من الخطبة، وأسرع إلى ملامسة القلوب، ومخاطبة الوجدان، ففى الوقت الذى تتنوع فيه موضوعات الخطبة: ما بين دينية، أو اجتماعية، أو وعظيّة، نجد الموعظة أخذت جانبا من اهتمامات بعض الخطباء، ثم تنفرد فى مواقف أخرى لاتحتاج إلى اعتلاء المنابر، بل تكون همسة فى أذن أحد المسئولين، ومن هنا تكتسب الموعظة صفة خاصة فى كونها أقرب إلى القلب.

وقد اشتمل القرآن الكريم على قدر كبير من المواعظ، فهو يقصّ علينا من أحوال الأمم الغابرة التى ذهبت جزاء عصيانها لله - عزّ وجلّ -، أو التى أطاعت ربها، واتبعت رسله، فجعل لها لسان صدق فى الآخرين.

ولقد رأينا القرآن عندما يعرض تلك القصص يعقب بأخذ العبرة والعظة يشير إلى ذلك قول الله - تعالى -:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وكذلك نجد السنّة المطهرة تنهج منهج القرآن الكريم فى هذا، ولا عجب أن يأخذ الرسول ﷺ بمجامع حسّ الصحابة - رضوان الله عليهم -، وأن ينفذ إلى أعماقهم بموعظته، حتى توجل القلوب، وتذرف العيون.

وقد وجدت هذه الموهبة فى كثير من الخلفاء فى الدولتين: الأمويّة والعباسية؛ ولـمَا كان عليه هؤلاء الخلفاء من ثقافة دينية عميقة، وامتلاك لناصية البلاغة، وقدرة علَى التأثير فى الناس، فكانت لهم المواقف والمقامات فى الوعظ، حَذَوْا فيها حَذْو النبىّ ﷺ، فيما كانوا يقومون به من مهامّهم، كإمامة الناس، والخطب فى الجمع والأعياد، وكلّما دعت الحاجة إلى إنكار منكر، أوتأييد معروف، فى مجالسهم، وبين خاصتّهم، وقد أينعت المواعظ فى مساجد: بغداد، والبصرة، والكوفة، والقاهرة، لـمَّا تكاثر الوعّاظ، واتسعت الثقافة، وظهرت البوادر الكثيرة التى تدعو إلى تذكير

الناس بآداب الدين، وأحكام الشريعة، والبعث، والمعاد، والوقوف بين يدى الله - سبحانه وتعالى -، وأسهم فى هذه المهمّة الوعظيّة الكثيرون من العلماء، والفقهاء، والمحدِّثين، وكان الخلفاء يستمعون إليهم بإصغاء واهتمام وترقُّب، ويتشوَّقون للقائهم، ويتطلعون إلى ذلك.

وقال الأوزاعىّ: دخلت على المنصور، فقال لى: ما الذى بطّأ بك عنّى؟ فقلت: وماتريد منّى؟ قال: الاقتباس منك . . . اهـ[1].

وتقع هذه المواعظ فى نفوسهم موقعا مؤثرا يستجلب مدامعهم، فقد وعظ عبد الله بن الأهتم عمر بن عبد العزيز وهو جالس على سريره موعظة بليغة، فنزل عمر عن سريره حتى استوى بالأرض، وجثا على ركبتيه، وابن الأهتم يقول: وأنت يا عمر، وأنت يا عمر، وأنت يا عمر، وعمر يبكى ويقول: يا ابن الأهتم هيه، فلم يزل يعظه، وعمر يبكى حتّى غشى عليه . . . اهـ[2].

وكان بعض الخلفاء يستقدم الوعاظ إلى مجالسهم؛ لما يتميّز به هذا الواعظ أو ذاك من قوّة التأثير، وحسن الأداء، وبلاغة العبارة، وحسن الاستنباط، وكانوا ينتهزون كل مناسبة تجمعهم بالوعاظ، فيطلبون منهم صراحة الموعظة، وكان بعض الخلفاء يوظّفون وعّاظا فى قصورهم بصفة دائمة يتولّون الوعظ فى المساجد، وعند نزول الكوارث والأحداث، وهذا يدلّنا على أنّ المهمّ هو القدرة على توصيل المعلومات، ممّا فتح الباب على مصراعيه.

أمّا المواعظ التى كانت تلقى فى مجالس الخلفاء، فكانت مواعظ تدعو إلى العدل، وتحذّر من الظلم، وتدعو إلى البعد عن الترّف، والتأسّى بالسلف الصالح، والاقتداء بالرسول ﷺ وصحابته.

وكان أولئك الوعاظ يبلغون الغاية فى الموعظة، ممّا يدل على إخلاصهم فى دعوتهم، واقتناعهم بما كانوا يدعون إليه، وكان الحكّام بالتّالى يتقبلّون مايوجّه إليهم من عظات.

لقد تضمّنت تعاليم الإسلام قول الحقّ، ولقّنت المتمسكين بها الاستقامة: قولا، وسلوكا؛ فانتشرت الموعظة.

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٣/ ١٦٢.

(٢) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص١٦٢.

فمن ذلك الموعظة التالية:

خرج عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوما إلى السّوق، ومعه الجارود: وهو بشر بن عمر بن حنش فإذا امرأة عجوز، فسلّم عليها عمر فردّت، وقالت: هيه يا عمر، عهدتك والله تسمّى عميرا فى سوق عكاظ، تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتّى سمّيت عمر، ثم سمّيت أمير المؤمنين فاتّق الله فى الرّعية، واعلم أنّ من خاف الموت خشى الفوت، فبكى عمر - رضى الله عنه -، فقال الجارود: لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته. فأشار عمر أن دَعْها. فلمّا فرغ قال: أما تعرف هذه؟ قال: لا، قال: هذه خَوْلة بنت حكيم التى سمع الله قولها، فعمر أحرى أن يسمع كلامها... اهـ[1].

وكان الخلفاء آذانا صاغية لهذه المواعظ يستجيبون لأهلها، ويستمعون لهم، ويلبّون مطالبهم، ويمتثلون ما يدعون إليه، لا تأخذهم العزّة بالإثم، ولاينالهم التكبر والبطر.

ومن ذلك الموعظة الآتية:

دخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره، وحوله الأشراف من كلّ بطن، وذلك بمكة المكرمة فى وقت حجه فى خلافته، فلمّا بصربه قام إليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد ما حاجتك؟

قال: يا أمير المؤمنين: اتق الله فى حرم الله، وحرم رسوله: فتعاهده بالعمارة، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله فيمن على بابك فلاتغفل عنهم، ولاتغلق بابك دونهم، فقال له: أفعل بإذن الله تعالى... اهـ[2].

- والله أعلم -

(١) انظر: الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء لابن الجوزى ص ٩٧

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبى جـ٥/ ٨٤.

الموضوع السابع

الأسباب المباشرة التى قوّت الحركة الوعظية ودفعت مسيرتها إلى الأمام

أولا: مكانة العلماء بين الناس:

يحدّثنا التاريخ: أن العلماء سواء كانوا من المفسرين، أو المحدّثين، أوالفقهاء، أو الوعاظ، كانوا يحظون بالمكانة الرفيعة فى المجتمع، لما لهم من التأثير المباشر فى توجيه الخلفاء وإرشادهم إلى الحقّ، والتمسك بالدّين، وبيان أحكامه، وتفسير آيات القرآن الكريم، وبيان سنة النبىّ ﷺ، وقد أحبهم المسلمون، وتتلمذوا عليهم، وتمتّعوا بالإجلال والتقدير عند الخلفاء، والأمراء، فقرّبهم الخلفاء من مجالسهم، وقضوا حوائجهم، وأصغوا إلى نصائحهم.

ومما يدلّ على مكانة العلماء فى نفوس الخلفاء: صلابتهم فى الدفاع عن الحقّ، واعتزازهم بمكانتهم الدينية، والعلميّة.. اهـ[1].

ثانيا: صلاح الحكام:

ممّا لاريب فيه أن المكانة الرفيعة التى حظى بها العلماء عند الخلفاء، والأمراء، ما كانت لتتهيّأ لولا الحكام صالحين، ومستحضرين لأوامر الدين، ومراعين مكانة العلماء، ومحافظين على شرع الله، وبذلك أتاحوا للوعّاظ أن يقولوا كلمة الحقّ، وأن يجهروا بتعاليم الدّين من غير تردّد، وأن يأمروا الحكام بالعدل، والإنصاف فى الرّعيّة، بل قد وجد بين الحكام من كان على درجة رفيعة من الفقه فى الدّين، وكثرة العبادة، فكان ذلك باعثا على تواضعه، وتدينه، وحبّه للعلماء والوعّاظ، ولقد كان هارون الرشيد - رحمه الله تعالى - مثلا أعلى فى ذلك؛ فقد كان يصلى وهو خليفة كل يوم مائة ركعة إلى أن مات.

وكان يحبّ العلماء، ويعظّم حرمات الدّين، ويبكى على نفسه سيّما إذا وعظ، فقد وعظه مرة الفضيل بن عياض الخراسانىّ، فبكى حتى شهق فى بكائه[2].

ولم يكن هارون الرشيد إلا نموذجًا واحدًا من خلفاء المسلمين الذين كان يجلّلهم الوقار والصّلاح، ويتوخّون طاعة الله بالتقرب إليه بالعبادات، والطاعات، وتقريب العلماء، والعدل بين الناس... اهـ[3].

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٣/ ١٦٥-١٦٨. (٢) انظر: سير أعلام النبلاء حـ٩/ ٢٨٨.

(٣) انظر: العصر العباسى الأول تأليف شوقى ضيف ص ١٠١.

ثالثا: ازدهار الحركة العلميّة:

شهدت القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام نهضة علميّة شاملة، كانت عماد الحضارة الإسلامية، فاتسعت حلق العلم ومجالسه، وتعدّدت نواحيه، وأروقته، وكثر المتردّدون عليها، وتدافع الناس لحضورها، وازداد علماؤها.

ولم يكن يُشْترط لحضور تلك الحِلَق الكثيرة أىّ شرط سوى الرغبة فى الإفادة ممّا كان يلقى فيها من دروس، ومواعظ.

وهكذا فإنّ الاهتمام من قِبَل الخلفاء بمجالس العلم كان يمثل جانبا مهما من جوانب ازدهار الحركة العلمية أتاحت للعلماء، والوعاظ فرصة الدخول على الحكّام ومناصحتهم، فكانوا يغشون مجالسهم، ويتخيّرون لهم النصائح، ويسوقون لهم من الوعظ أقربه، وأسهله، فقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيّنُنّ الحقّ للناس ولايكتمونه... اهـ.

- والله أعلم -

الموضوع
الثامـــن

أغراض الوعظ فى مجالس الخلفاء

إذا مـا استـعـرضنا هذه المواعـظ الكثيـرة التى ألقـاها الوعّـاظ فى مجـالس الخلفـاء، وضمّنّاها كـتب التراث المـتعـدّدة استطـعنا أن نقف منها على عـدد من الأغراض التى توخّاها أولئك الوعّاظ فى مواعظهم، أذكر منها الأغراض الآتية:

أولاً: التزهيد فى الدنيا:

لعلّ ما يقترن بالسلطان من أبّهة الملك، وقوّة النـفوذ، وثراء المعيشة، وتصريف الأمـور، مدعـاة لكثـير من النـاس للإقبـال على الدنيـا، والانغمـاس فى ملذّاتهـا وشهواتها، والتمتّع بما يتوفّر من مظاهر الرغد.

ولعلّ السلطان من أكثر من تتـهيأ له هذه الأسباب، وتتـوفر لديه الدواعى، ولهذا كان حديث الوعّاظ واضحا وجليّا للخلفاء، يريدون تزهيدهم فى الدنيا.

وقد بدأت فكرة تزهيد الخلفاء فى الدنيا مبكرة فى العصر الإسلامى، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتى:

١ -يقول علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه- عندما تولّى الخلافة:

إن أردت أن تلحق صاحبـيك فاقصر الأمل، وكل دون الشـبع، وارقَع القميص، واخصف النّعْل. . . اهـ[(١)].

٢ -ودخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخـطاب ومحمد بن كعب القرظىّ على عمر بن عبد العزيز، فقال عمر لأحدهما عظنى، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ الدنيا عَطَنٌ مهجُور، وأكل منزوع، وعرض بلاء، ومستقر آفات، يحيط بها الذلّ، ويفنيها الثكل، لكل فرحة منها تَرْحَة، ولكل سرور منها غرور، قد رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدى الأشقياء، فكن منها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه: يصبر على شدّة الدواء، لما يرجو من الشفاء. . . اهـ[(٢)].

---

(١) انظر: كنز العمّال حـ٨/ ٢١٩.

(٢) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٥٦.

فهذه موعظة قيلت للخليفة الزاهد عمر بن العزيز - رحمه الله تعالى -، فما كان من عمر إلا أن بكى على إثر هذه الموعظة، وقال: لاحول ولاقوّة إلا بالله.

٣- ودخل محمد بن كعب القرظى على عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ضرّهم، ومنها خرجوا بما نفعهم، وكم من قوم غرّهم منها مثل الذى أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا من الدنيا ملومين، لم يأخذوا منها لِمَا أحبّوا من الآخرة عدّة، ولالِمَا كرهوا جنّة... اهـ[١].

٤- ومن هذه المواعظ التى كانت تحث الخلفاء على الزهد فى الدنيا ما وعظ به رجل من العُبّاد أبا جعفر المنصور حين قال له: لاتغلبك رأفتك بالمسلمين عن شحّ نفسك، فإن كنت تجمع المال لولدك فقد أراك الله عِبراً فى الطفل: يسقط من بطن أمّه ما له على الأرض مال، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولستَ بالذى يعطى، بل الله يعطى من يشاء ما يشاء. فإن قلت: إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلاّ بخلاف ما أنت عليه... اهـ[٢].

٥- وقد قال أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد: عظنى يا أبا عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منها ببعضها، هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل إليك... اهـ[٣].

٦- وقال هارون الرشيد لابن السمّاك: عظنى، وقد أُتِى بماء ليشربه، فقال له: يا أمير المؤمنين لو حُبِسَتْ عنك هذه الشَّرْبة أكنتَ تفديها بملكك؟ قال: نعم، قال: فلو حُبِسَ عنك خروجها أكنت تفديها بملكك؟ قال: نَعَم. قال: لا خير فى ملك لا يساوى شربة ولابولة... اهـ[٤].

ممّا تقدم يتبيّن أنّ هذا النمّط من الوعظ قد امتدّ عبر العصور الإسلامية على ألسنة الوعّاظ يزهِّدون به الخلفاء عن الإقبال على لذائذ الدنيا، ومتاعها الزائل، فيجدون لديهم الاستجابة لقبول الموعظة... اهـ.

---

(١) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٥٧.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٣/ ١٦١.

(٣) انظر: الشفاء لابن الجوزى ص ١٠٢.

(٤) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٣/ ١٦٤.

ثانيًا: ذكر الموت والتخويف من الآخرة:

هذا الموضوع مرتبط ارتباطا وثيقا بالموضوع السابق وهو التزهيد فى الدنيا؛ فإن من لوازم التزهيد فى الدنيا، والإقبال على الآخرة ذكر الموت، والاستعداد له؛ حتى يكون ذلك رادعًا للنفس الأمّارة بالسوء، الطامحة للشهوات، الراغبة فى مباهج الدنيا، كما قال الرسول ﷺ: «كفى بالموت واعظًا».

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- لأبى حازم: عظنى، فقال أبو حازم: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحبّ أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن... اهـ[1].

ووعظه [مولاه مزاحم] فقال: يا عمر بن عبد العزيز إنى أحذرك ليلة فى صبيحتها تقوم الساعة، يا عُمَر لقد كدتُ أُنسى اسمك ممَّا أسمع قال الأمير، قال الأمير... اهـ[2].

إنّها دعوة لمحاسبة النفس، كما فى موعظة أبى حازم لعمر بن عبد العزيز، لذلك الموقف العظيم حين تقوم الساعة، وما يلقى فيها المرء من حساب على أعماله.

وقال سليمان بن عبد الملك: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمّرتم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تُنقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم؟ قال: أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله. وأمّا المسىء فكالآبق يقدم على مولاه... اهـ[3].

وأقول: تلك سنة الأحياء عامّة، لم يزل عليها الناس فى غابر الزّمن وحاضره، والمرء إذا لم يُعِدّ لليوم الآخر كره الوصول إليه؛ ومن هنا تناولت هذه المواعظ التخويف من الحساب فى الآخرة لفرط ما يقع من الإنسان من الأخطاء.

وقد وعظ رجل من الصالحين أبا جعفر المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأشدّ من القتل؟ قال أبو جعفر المنصور: لا قال: فكيف تصنع بالمَلِك الذى خوّلك ملك الدنيا، وهو لايعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود فى العذاب الأليم؟، فبكى أبو جعفر المنصور وقال: ليتنى لم أُخْلَق... اهـ[4].

---

(١) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٥٩.

(٢) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٦٦.

(٣) انظر: الذهب المسبوك ص ١٦٥-١٦٦.

(٤) انظر الذهب المسبوك ص ١٩٣-١٩٨، والعقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٣/ ١٦١.

ووعظ الأوزاعيُّ أبا جعفر المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ كلّ ما فى يدك لايعدل شَرْبة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها، ولو أنّ ثوبا من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأهلك الناسَ رائحتُه، فكيف بمن يتقمّصه؟، ولو أنّ ذنوبا من صديد أهل النار صُبّ على ماء الدنيا لأحمّه، فكيف بمن تجرعه؟ ولو أنّ حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبلٍ لأذابته، فكيف بمن يُسلك فيها؟ . . . اهـ[1].

وعلى هذا النحو كانت تُصوِّر مواقف يوم القيامة، وعذاب أهل النار بما تقشعرّ له الأبدان، وتنصدع له القلوب، وتذهل له العقول، مما كان يجعل لتلك المواعظ وقعها الذى لاينكر فى نفوس من يسمعها.

ووعظ شبيب بن شيبة التميمى (ت ١٧٠هـ) المهدى فقال: يا أمير المؤمنين إنّ الله إذا قسم الأقسام فى الدنيا جعل لك أسفلها وأعلاها، فلاترض لنفسك فى الآخرة إلا مثل مارضى لك به من الدنيا، فأوصيك بتقوى الله . . . اهـ[2].

ووعظ الفضيل بن عيّاض هارون الرشيد، فقال له: يا حسن الوجه لقد قُلِّدت أمرا عظيما فاتق الله فى نفسك، وإن قدرت أن لاتلفح النارُ هذا الوجه الحسن فافعل . . . اهـ[3].

ثالثا: الدعوة لاختيار البطانة الصالحة:

مما لا شك فيه أن الصورة الخارجيّة للسلطان تظهر فيمن يتخذ من أعوان، وما يكون لديه من بطانة؛ فإن كانت هذه البطانة صالحة مهّدت الطريق بينه وبين المجتمع، وأصلحت الوسائط الممتدّة بين الرّاعى والرعية، فوصل المظلوم إلى حقّه، والمستجير إلى من يُجيره، وإن كانت على خلاف ذلك ضربت بينه وبين رعيّته سورًا منيعا لايمكن اجتيازه من أحد الجانبين، فانعزل السلطان عن حياة المجتمع، ولم يعرف ما يدور بين رعيّته فلاتصل إليه شكوى، وانعزل الناس كذلك عنه، يأكل القوىّ الضعيف، ويقهر الكبير الصغير، ويستولى الجشع على حقوق الناس، ومن ثَمَّ تزداد البطانة سوءًا بما تعتسفه من إحكام الجوْر والطغيان، وبما تتعدّى به على أموال الناس وأنفسهم وحرماتهم، فتعيث فى الأرض فسادًا، وتمتلك الضياع والمتاع، وتستكثر من الأموال غير ناظرة إلى حلال أو حرام، وهى فى طمأنينة ممّا فعلت، وأمْن من مغبّة جرمها بما أقامته بين الحكام والمحكومين، من سدود منيعة، وحواجز قويّة.

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٣/ ١٦٢-١٦٣.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٣/ ١٦٥.

(٣) انظر: حلية الأولياء حـ ٨/ ١٠٥.

لهذا كنا نجد كثيراً من الوعّاظ يحثّون الخلفاء على اختيار أفراد حاشيتهم ؛ ليكونوا صالحين فى أنفسهم ، وفى معاملتهم للرعيّة ، أو نجدهم يجأرون بشكواهم عن هذه الحاشية لسوء سيرتهم ، وفرط ظلمهم للرعيّة :

دخل أعرابىّ على سليمان بن عبد الملك ، فقال : إنه قد تكنّفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فإنهم لايألون الأمانة تضييعا ، والأمّة عسفا ، وأنت مسئول عمّا اجترحوا ، وليسوا مسئولين عمّا اجترحتَ ، ولاتصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس جُرْما من باع آخرته بدنيا غيره . . . اهـ[١] .

وتحدّث رجل من العبّاد عند المنصور : فذكر الحاشية التى تحول بينه وبين أصحاب المظالم ، وتقع حاجزاً بينه وبين الرّعية ، وكشف عن أثرهم فى تشويه سمعة الأبرياء ، وتسويد صحائف الناس البيضاء ، فلمّا رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرتهم أن لايُحْجَبُوا دونك ، قالوا : هذا قد خان الله ، فما لنا لانخونه ؟ .

فأتمروا أن لايصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ما أرادوا ، ولايخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خوّنوه عندك ، ونفوه حتى تسقط منزلته ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم ، وصانعوهم ، وكان أوّل من صانعهم عمّالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ولينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالدّمع ظلما وبغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه . . . اهـ[٢] .

لقد جسّم هذا الواعظ المفاسد التى تترتب على سوء اختيار الحاشية بصورة فيها قدر كبير من التأمّل ، والنظر والإحساس بالواقع ، ثم صنّف تلك المفاسد فى ظلم الرعيّة ، وفى استرضاء ذوى المقدرة والثروة لها ، ممّا حملهم على ظلم مَنْ دونهم ، وفى عدم قدرة الناس على الوصول إلى الخليفة لبثّ شكواهم حتى امتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا .

وعلى هذا النحو نجد محمداً بن كعب القرظى يعظ عمر بن عبد العزيز فيقول : لاتتّخذنّ وزيراً إلا عالما ، ولا أمينا إلا بالجميل معروفا ، وبالمعروف موصوفا ، فإنهم شركاؤك فى أمانتك ، وأعوانك على أمورك ، فإن صلحوا أصلحوا ، وإن فسدوا أفسدوا . . . اهـ[٣] .

---

(١) انظر : العقد الفريد حـ٣/ ١٦٦ ، والذهب المسبوك ص ١٧٤ ، والشفا ص ١٠٠ .

(٢) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ٣/ ١٦٠ .

(٣) انظر : الأمالى لأبى على القالى حـ٢/ ٢٩ ، والذهب المسبوك ص ١٧٩ .

ومنّا يجسّم هذا النوع من المواعظ هو أنّ الوعاظ قد حذّروا الخلفاء من سوء الحاشية، ومن ذلك ما ذكره الحسن البصرىّ فى إحدى مواعظه لعمر بن عبد العزيز إذْ قال له: لا تسلّط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلًّا ولا ذمّة، فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتَحْمل أثقالك، وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرّنك الذين يتنعّمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم، بإذهاب طيباتك فى آخرتك... اهـ[١].

فهذه موعظة من رجل متضلّع فى الوعظ، ممارس لحياة الناس، مطّلع على وقائع الأمور، مستنبط لفقه القرآن الكريم، والسنة النبوية، فنجده يعظ عمر بن عبد العزيز ذلك الخليفة الحريص على العدل، والاستقامة، وتوخّى إنصاف الرعيّة، ووصول الحقوق إلى أصحابها، ومع ذلك حذّره من اتخاذ بطانة السوء.

وقال سالم بن عبد الله بن عمر فى موعظة له وجّهها إلى عمر بن عبد العزيز، فقال له: ما أعظم الذى ابتليتَ به، وأفظع الذى سيق إليك! ، فمن بعثتَ من عُمّالك إلى العراق فانهه نهيا شديدًا شبيها بالعقوبة عن أخذ الأموال، وسفك الدماء؛ فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه، ثم لم تغيّره... اهـ[٢].

وقد شرح عمرو بن عُبيد فى موعظته لأبى جعفر المنصور هذا الدّور المستتر الذى تقوم به الحاشية باسم الخليفة، وهو منه براء، فيظلمون بحكم مركزهم، وبقوّة سلطانهم، فيقول: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلّما لشهواتهم، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإنك ميّت وحدك، ومبعوث وحدك، ومحاسب وحدك، ولن يغنى عنك هؤلاء من الله شيئًا... اهـ[٣].

ويكرّر عمر بن عبيد هذه الموعظة لأبى جعفر المنصور، فيقول له: يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء اتخذوك سلّما إلى شهواتهم، فقال المنصور: فماذا أصنع؟ ادع لى أصحابك أُولّهم.

فقال: ادعهم أنت بعمل صالح تُحْدثه، واستعمل فى اليوم الواحد عمّالا كلّما رابك منهم شىء، أو أنكرت على رجل عزلته، وولّيْت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقرّبنّ به إليك من لا نية له فيه... اهـ[٤].

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ١/ ٣٥.

(٢) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٥٠-١٥١.

(٣) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان تأليف عبد الله بن أسعد اليافعى حـ١/ ٣٥٥.

(٤) انظر: المحاسن والمساوئ تأليف إبراهيم بن محمد البيهقى ص ٣٣٩.

وقد أعلن صالح بن عبد الجليل فى موعظته للمهدى : عن تبرّمه من الاحتجاب عن الرّعيّة ، واتخاذ الحجاب دونها حين قال له : يا أمير المؤمنين إنه لـمَّا سهل علينا ما توعّـر على غيرنا من الوصول إليـك قمنا مقام المـؤدى عنهم ، وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى . . . اهـ[١] .

من هذا نجد دعوة الوعّـاظ الملحّة للخلفاء فى فتح أبوابهم للعـامّة ، والتقليل من الحجّاب الذين يفصلون بينهم وبين الناس .

رابعًا: تبعة الخلافة وحسن معاملة الرعيّة:

تحدّث الوعّاظ كثيرًا عن حقوق الرّعيّة على الرّاعى ، وأساليب معاملة الناس ، ووجوب الإحسان إليهم ، فإنّ السلطان ما ولى هذه المهمّة إلا من أجل خيرهم ، وتحقيق مصالحهم .

كمـا قال الأوزاعى لأبى جعـفر المنصور : إنـك تحمّلت أمانة هذه الأمّـة ، وقد عُرِضَت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .

وقد جاء عن جدّك عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- فى تفسير قول الله - عزّ وجلّ- :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: ٤٩] .

فقال : الصغيرة : التبسّم ، والكبيرة : الضحك فما ظنك بالقول والعمل؟

فأعـيذك بالله يا أمـير المؤمنيـن أن ترى أنّ قرابتك من رسول الله ﷺ تنـفعك مع المخالفة لأمره . . . اهـ[٢] .

ثمّ نقـل إليـه فـى سـياق موعظـتـه قول النبىّ ﷺ: «ما من راع يبيت غاشّا لرعيّته إلا حرّم الله عليه رائحة الجنة»[٣] .

ثم قال الأوزاعى فى موعظـته هذه : وحقيق على الوالى أن يكون لرعـيته ناظرا ، وبالحقّ فيهم قائما . . . اهـ[٤] .

وكانت جسامة المـسئولية التى يتحمّلها الخليفة مـناط تعزية ، وتصبرا فى حديث الوعّاظ ليحملوا الخلفاء على الوفاء بحقوقها كاملة .

---

(١) انظر : عيون الأخبار جـ٢/ ٣٣٣، والعقد الفريد جـ٣/ ١٥٨ ، والذهب المسبوك ص ٢٠٩ .

(٢) انظر : العقد الفريد جـ٣/ ١٦٢ .

(٣) انظر : صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم/ ١٤٢ .

(٤) انظر : العقد الفريد جـ٣/ ١٦٢ .

فمن ذلك موعظة زياد العبد حين قدم على عمر بن عبد العزيز قوله: لاتُعْمِل نفسك فى الوصف، وأعمل نفسك فى المخرج ممّا وقعت فيه، فلو أن كل شعرة منك نطقت ما بلغت كُنْه ما أنت فيه... اهـ[١].

وقد وعظ أبو نصر الجهنى هارون الرشيد، فقال له: أيها الرجل إنه ليس بين الله، وبين أمّة نبيّه «محمد» ﷺ، ورعيتك خلق غيرك، وإنّ الله سائلك فأعدّ للمسألة جوابا.

فقد قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: لو ضاعت سَخَلَة على شاطئ الفرات لخاف عمر أن يسأله الله عنها، فبكى هارون، وقال: يا أبا نصر إنّ رعيّتى، ودَهْرى، غير رعيّة عمر ودهره، فقال له أبو نصر: هذا والله غير مغن عنك، فانظر لنفسك، فإنك، وعمر ستسألان عمّا خوّلكما الله... اهـ[٢].

ووعظه عبد الله بن عبد العزيز العمرى وهو واقف على الصفّا، فقال: انظركم حَوْل الكعبة من الناس؟ فقال: كثير، فقال: كل واحد منهم يسأل يوم القيامة عن خاصّة نفسه، وأنت تُسْأل عنهم كلهم، فبكى هارون الرشيد بكاء كثيراً... اهـ[٣].

ودخل سالم، ومحمد بن كعب على عمر بن عبد العزيز فوعظه أحدهما موعظة رسم فيها طرق التعامل مع الرعيّة، والأدوار التى يمكن أن يقوم بها الخليفة فى صلته بأفرادها، فقال له: يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من خلقه فوقك، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك، واجعل الناس أصنافا ثلاثة: الكبير بمنزلة الأب، والوسط بمنزلة الأخ، والصغير بمنزلة الولد: فبرّ أباك، وصل أخاك، واعطف على ولدك... اهـ[٤].

وقد كرّر هذا المعنى رجاء بن حيوة الكندى فى موعظة لعمر بن عبد العزيز إذْ قال له: اجعل كبير الناس أبا، وصغيرهم ولدا، وكَهْلهم أخا، يصلحوا لك، وتصلح لهم... اهـ[٥].

ففى النّصيْن السابقين بيّن الواعظ للخليفة سياسة التعامل مع الرعيّة، وجعلهم فى ثلاثة منازل: منزلة الأب، ومنزلة الأخ، ومنزلة الولد، وهو أسلوب من التعامل

---

(١) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٦٤.
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/ ٢٣٥. (٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/ ١٩٢.
(٤) انظر: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٥٦.
(٥) انظر: الذهب المسبوك ص ١٧٥.

يضمن حسن العلاقة مع كلّ أفراد الرعيّة ، ولاشك أن هذه الروح عندما تسود فى مجتمع بين قمّته ، وقاعدته ، فإنها تضمن التواصل المستمر ، والاحترام المتبادل بين الرعيّة ، وقيادتها ، وقد تناول الحسن البصرى هذا المعنى فى موعظة من مواعظه لعمر ابن عبدالعزيز إذْ قال له : الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنّها من أذى الحرّ ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلّمهم كبارا ، يكسب لهم فى حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشّفيقة البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربّته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه تارة أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصىّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويموّن كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله - عزّ وجلّ - كعبد ائتمنه سيّده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . . . اهـ[١] .

وهكذا نجد الحسن البصرىّ - رحمه الله تعالى - يقلّب الأوصاف للخليفة فى علاقته بالرعيّة فيجعله كالرّاعى ، وكالأب ، وكالأمّ ، وكالقلب بين الجوارح ، ليؤكد خاصيّة الشفقة ، والعطف ، والحنوّ ، التى تربطه بهم ، وإنّ فى صلاحه صلاحا للأمّة .

ثم يحدّد فى أواخر كلامه الدور الذى يقوم به الخليفة فى حماية الشرع ، وتحقيق مصالح الدنيا .

وقد لخّص سالم بن عبد الله بن عمر هذا الأمر فى إحدى مواعظه لـ عمر بن عبد العزيز إذْ قال له : يا أمير المؤمنين ارض للناس ما ترضى لنفسك ، واكره لهم ما تكره لها ، تسلم منهم ، ويسلموا منك . . . اهـ[٢] .

---

(١) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربّه حـ١/ ٣٤-٣٥ .

(٢) انظر : الذهب المسبوك ص ١٧٥ .

كما جسّم أبو مسلم الخولانى فى موعظته لـمعاوية وظيفة الخليفة، ليحسّ كأنه دون الناس، لأنه مكلّف برعاية شئونهم ومصالحهم، فيبتدره بقوله: السلام عليك أيها الأمير، اعلم أنه ليس من أجير استرعى رعيّة إلا وهو مسئول عنها: فإن هو داوى مرضاها، ووضعها فى أنف الكلأ، وصفوّ من الماء وقّاه أجره... اهـ[١].

وقال جعفر الصادق لأبى جعفر المنصور: اعلم أنك إن عاقبت مستحقًا لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل، والحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر. قال أبو جعفر المنصور: وعظتَ فأحسنت... اهـ[٢].

وقد يجابهونهم بالنقد اللاذع، والاحتجاج المبرم لما يتخذون من وسائل الاحتجاب عن الرعيّة، والصدود عن المستضعفين.

ومن ذلك ما قاله عبد الله بن عبد العزيز العمرى يعظ هارون الرشيد إذْ قال له: يا هارون إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحَجْر عليه، فكيف بمن يسرف فى أموال المسلمين كلّهم؟... اهـ[٣].

وحاسبوهم حساب من يقول: من أين لك هذا؟، حتّى قال سفيان الثورى وهو يعظ المهدى عندما قابله فى الحجّ: كم أنفقت فى سفرك هذا؟ قال: لا أدرى لى أمناء، ووكلاء، فقال سفيان: فما عذرك غدًا إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن هذا؟

لكنْ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- لمَّا حجّ قال لغلامه: كم أنفقتَ فى سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر دينارا. فقال: ويْحك أجحفنا بيت مال المسلمين... اهـ[٤].

وقد وعظ عمر بن عبيد سليمان بن علىّ أمير البصرة بقوله: إنّ ممّا منّ الله به على الأمير: أن يعلم أنه ليس له أن يأخذ درهما إلا بحقه، ولا يضيّعه إلا فى حقّه.

فقال سليمان: نحن أحسن بالله ظنّا منك.

فقال عمرو: ما كان أحد أحسن ظنّا بالله - تعالى - من نبيّنا «محمد» ﷺ، وقد لقى الله، وما يطالبه أحد بمظلمة... اهـ[٥].

(١) انظر: الحلية لأبى نعيم حـ٢/ ١٢٥، والشفاء لابن الجوزى ص ٩٨.
(٢) انظر: وصايا ومواعظ العلماء ص ٩٧.
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير حـ١٠/ ١٩٢.
(٤) انظر: حلية الأولياء حـ٦/ ٣٧٧.
(٥) انظر: الذهب المسبوك ص ٢٣٣.

خامسًا: الدعوة إلى العدل:

يتّصل بالحديث عن معاملة الرعية بالعدل فى حياة الحاكم، ومعاملته لرعيته فى مختلف المناسبات: فلا يجور على عدوّ، ولايحابى صديقا من الأصدقاء، والدعوة إلى العدل تقتضى بالتالى التنفير من الظلم.

والعدل أصل من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده العامّة، نجدها فى القرآن الكريم، وفى سنة النبى ﷺ:

فمن القرآن:

١ - قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

٢- وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٣- وقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

ومن السنة المطهرة الحديث الآتى:

١ - «إنّ المقسطين فى الدنيا على منابر من نور يوم القيامة بين يدى الرحمن بما أقسطوا فى الدنيا» اهـ(١).

ولقد أدرك علماء الأمّة، ووعّاظها أهميّة العدل فى استقرار الحياة، واضطراد النموّ، والتقدّم للمجتمع، فعملوا ووعوا قول الرسول ﷺ:

«أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر، ولم تمنعهم هيبة السلطان أن يقولوا للظالم: أنت ظالم» اهـ(٢)

وإذا اعتسف الحكّام، وضاق الناس بظلمهم، وتذمّروا من حيفهم، ضجّوا إلى الوعّاظ يشرحون لهم ظلامتهم، ويستجيرون لديهم، ويبعثونهم إلى الحكام ليذكروهم بقيمة العدل وأهميّته، ويدعونهم إلى رفع الظلم.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه الحديث رقم/ ١٨٢٧.

(٢) هذا جزء من حديث أبى سعيد الخدرى، انظر: سنن أبى داود رقم/ ٤٣٤٤.

ومن ذلك أنّ أحمد بن طولون (ت٢٧٠هـ) لما ظلم استغاث الناس من ظلمه، وتوجّهوا إلى امرأة من الصالحات هى: نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب (توفيت بالقاهرة سنة ٢٠٨هـ)، وشكوا ذلك إليها، فقالت لهم: متى يركب؟

قالوا: فى غَدٍ، فكتبت رقعة ووقفت فى طريقه، وقالت: يا أحمد بن طولون.

فلما رآها عرفها، فنزل عن فرسه وأخذ منها الورقة، وقرأها فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، ورُدّت إليكم الأرزاق فقطعتم، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد أجعتموها، وأجساد أعريتموها، اعملوا ما شئتم إنا صابرون، وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون، فعدَل لوقته... اهـ[1].

وهكذا نجد الوعّاظ يواجهون الخلفاء، والأمراء بالحق، وأن يعلنوا مظالم الناس إليهم.

وكانوا كثيراً ما يضمّنون مواعظهم بهذا الشأن منهجا عامّا فى معاملة الرّعيّة وإنصافها، كما فعل سعيد بن عامر الجمحىّ (ت ٢٠هـ - رضى الله عنه) فى موعظته لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه - ت ٢٣هـ) إذْ قال له: أوصيك أن تخشى الله فى الناس، ولا تخشى الناس فى الله، ولايختلف قولك وفعلك، فإنّ خير القول ما صدّقه الفعل، ولا تقض فى أمر واحد بقضائين: فيختلف عليك أمرك، وتزيغ عن الحق، وخذ بالأمر ذى الحجّة يعنْك الله، ويصلح رعيتك على يديك، وأقم وجهك وقضاءك لمن ولاّك الله أمره من بعيد المسلمين، وقريبهم، وأحبّ لهم ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك، وأهل بيتك، ولاتخف فى الله لومة لائم... اهـ[2].

هكذا كانت مجالس الخلفاء تعجّ بألوان المواعظ التى تتناول سلوك الخلفاء، وحاشيتهم، وتطالب بحسن معاملة الرعيّة، وكانوا يستقبلون كل ذلك برحابة صدر، وسعة أفق، ووازع دينى يدفعهم إلى الاستجابة لهذه المواعظ.

-والله أعلم-

(١) انظر: وصايا ومواعظ العلماء للأمراء لخالد سيد على ص ٢٤٠.

(٢) انظر: الجليس الصالح والأنيس الناصح، تأليف أبى الفضل يوسف بن الجوزى ص ٢١٩.

الموضوع التاسع

أنـواع التعـازى

لقد استعرضتُ ما ضمّت كتب التراث من التعازى، وقد اقتبست منها التعزيات الآتية:

أولا: تعزية النفس:

إذا دنا الإنسان من الموت، وأحسَّ بالنّهاية، واستدبر الدنيا، استقبل الآخرة، تغيرت أحاسيسه، وذلّت نفسُه، وخشع جنانه، ورقّ حديثه، واعتراه الأسف والندم، وامتلأ بالخوف والرهبة.

لذلك أقف على كثير من النصوص التى يصف فيها المحتضرون حالهم:

فقد روى البخارىّ فى صحيحه عن أنس -رضى الله عنه- قال: لمّا ثقل النبىّ ﷺ جعل يتغشّاه، فقالت «فاطمة» -رضى الله عنها: واكرب أباه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلمّا توفّاه الله - تعالى - قالت: يا أبتاه أجاب ربّا دعاه، يا أبتاه إلى جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلمّا دُفن - عليه الصلاة والسلام - قالت «فاطمة» -رضى الله عنها: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟[1].

وجاءت «عائشة» -رضى الله عنها- إلى أبيها أبى بكر -رضى الله عنه- وهو يعالج سكرات الموت، ونفَسُه فى صدره، فتمثّلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ∴ إذا حَشْرجت يوما وضاق بها الصدر[2]

فنظر إليها والدها كالغضبان، ثم قال لها: ليس كذلك يا أمَّ المؤمنين، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

يا عائشة: إنىّ كنت نحلتك حائطا، وإنّ فى نفسى منه شيئا فردّيه إلى الميراث، قالت: نَعَم، فردّته. فقال لها: أمَا إنّى منذ أن وليت أمر المسلمين لم آكل لهم دينارا ولا درهما، وليس عندى من فىء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشىّ، وهذا البعير الناضح، وجَرْد هذه القطيفة: فإذا متّ فابعثى بهنّ إلى عمر وابرئى منهنّ، ففعلت.

(١) انظر: صحيح البخارى الحديث رقم/ ٨٩٤.

(٢) البيت من شعر حاتم الطائى فى قصيدة له، وحاتم الطائى شاعر جاهلى.

فلمّا جاء الرسولُ عمر بكى، حتى جعلت دموعه تسيل فى الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده. اهـ[١].

فهذه خواطر رجل مقبل على ربه، تحمّل مسئولية الأمّة، ونهض بأعبائها، يطرح بساطه بين يديه، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب؛ إحساسا منه بهذا الموعود الذى يؤول إمّا إلى نعيم دائم، أو عذاب مقيم.

ويستعرض صفحة تولّيه الإمامة ينشر سطورها، وينكت محتوياتها؛ فيجد نفسه قد عاش بالقليل، وهو واحد من الأمّة لايعلو عليهم ولايتكبّر، أكل ما سدّ الجوعة، ولبس ما ستر العورة، واحتمل الجوع حتى تلوّت أحشاؤه، وتحرّكت أمعاؤه، ثم يوصى ابنته «عائشة» أم المؤمنين أن تردّ إلى بيت مال المسلمين ذلك النزر اليسير الذى استعان به فى حياته، حتى يلقى ربّه خالي الوفاض؛ حتى لايسأله الله عن أىّ شىء، وربمّا تحوّلت هذه اللحظات الحرجة من حياة الإنسان إلى استشعار تامّ بالذنب، فتؤول إلى استغفار كامل، وتسبيح مطلق، وتوبة صادقة.

ومن الأدلة على ذلك ما يأتى:

لمَّا احتضر عمرو بن العاص -رضى الله عنه- جمع بنيه وقال: أسندونى، فأسندوه، فقال: اللهمّ إنك أمرتنى فلم آتمر، وزجرتنى فلم أزدجر، اللهمّ لابرىء فأعتذر، ولامستكبر بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا أنت سبحانك إنىّ كنت من الظالمين. اهـ[٢].

وعلى هذا النحو جاءت موعظة الحسن البصرى -رحمه الله تعالى- وهو فى الموت، وكان يكثر الاسترجاع، فقال له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟

فقال: يابُنىّ ما أسترجع إلا على نفسى التى لم أصَبْ بمثلها قطّ. اهـ[٣].

ولمَّا احتضر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ) قال له أبوه: كيف تجدك يابُنىّ؟ قال: أجدنى فى الموت فاحتسبنى، فإنّ ثواب الله خير لك منّى.

فقال: والله يا بُنىّ لأن تكون فى ميزانى أحبّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك.

فقال: وأنا والله لأن يكون ما تحبّ أحبّ إلىّ من أن يكون ما أحبّ. اهـ[٤].

(١) انظر: طبقات ابن سعد جـ٣/ ١٩٦.
(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٣/ ٢٣٣.
(٣) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٣/ ٢٣٤.
(٤) انظر: نهاية الأرب جـ٥/ ١٦٦.

وقيل لبعض الصالحين وهو يجود بنَفَسه : كيف تجدك ، وكيف حالك؟

فقال : كيف حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ، ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس ، وينطلق إلى ربٍّ بلا حُجّة؟ . . اهـ[١] .

وعلى هذا النحو نجد عمرا بن عبيد عندما احتضر قال : جاءنى الموت ولم أتأهّب له ، اللهم إنك تعلم أنه لم يُسْنح لى أمران : لك فى أحدهما رضى ، ولى فى الآخر هَوى ، إلا اخترتُ رضاك على هواى ، اللهم اغفر لى . . اهـ[٢] .

وقال هشام بن عبد الملك عندما نزل به الموت ، ووقف أولاده يبكون حوله : جاد لكم هشام بالدنيا ، وجدتم له بالبكاء ، وترك لكم ما جمع ، وتركتم عليه ما اكتسب ، ما أعظم منقلبى إن لم يغفر الله لى . . اهـ[٣] .

حقّا إنها ساعة يطيب فيها الرجاء ، وتتوق فيها النّفْس إلى مغفرة الله سبحانه .

ثانيا: تعزية الآباء:

لمَّا كان الولد امتدادا لأبيه ، وصورة منه يحمل ذكراه ، فقد كان الولد صنْو النفس ، ومضغة من القلب ، وفلذة من الكبد ، حتى لنجد استعمال الكبد مقترنا بالحديث عن الابن فى رثائه ، وتعزيته ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن ندرك نوعين من التعزية عند فقدان الولد :

النوع الأول: حديث الأب عن نفسه عند فقد ولده ، وما يتداعى إليه من الخواطر ، والأفكار ، وهو يوارى كبده تحت التراب ، أو يراه يجود بنفسه ملبيا دعوة خالقه -عزّ وجلّ- ، وقد ضرب لنا الرسول ﷺ صورة مثاليّة فى استقبال هذا الحدَث الجلل ، بما أودع من عواطف إنسانيّة جيّاشة ، ويقين صادق ، وإيمان عميق :

فعن أنس بن مالك -رضى الله عنه- :

أن النبىّ ﷺ دخل على ولده إبراهيم -عليه السلام- وهو يجود بنفسه ، فجعلت عيناه تذرفان .

فقال له عبد الرحمن بن عوف -رضىَ الله عنه- : وأنت يا رسول الله .

فقال : «يا ابن عوف إنها الرحمة» ، ثم قال : «إنّ العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولانقول إلا ما يرضى ربّنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» . . اهـ[٤] .

---

(١) انظر : بهجة المجالس ، وأنس الجالس ، تاليف أبى عمر يوسف بن عبد البرّ جـ٣/ ٣٦٨ .

(٢) انظر : بهجة المجالس ، وأنس الجالس جـ٣/ ٣٧٢ . (٣) انظر : بهجة المجالس ، وأنس الجالس جـ٣/ ٣٧١ .

(٤) هذا الحديث رواه البخارى عن أنس فى كتاب الجنائز رقم/ ١٢١٦ .

فالرسـول ﷺ يرينا فى هذه اللحظة الحرجـة، وولده فى النزع الأخيـر، ويجود بنفسه، ويتلوّى بين يديه، أروع مـثال للأب الصابر المؤمن، الذى يحيل مـصائبه إلى قوّة الإيـمان، فتـتحـوّل إلى عبـادة صادقـة، ويرينا من جانب آخـر العاطفـة الأبويّة الصادقة، التى لاتفارق الأبوّة، ويأبى أن تفوت هذه المناسبة حتى يوجّه المسلمين إلى حقيـقة الإيمان فيقـول لهم عندما انكسفت الشمس يوم أن مـات ولده إبراهيم: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وأنهما لاينكسفان لموت أحد من الناس، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلّوا». اهـ[1].

ومـن هذه المواعظ التى تحدّث فيهـا الآباء عن موت أبنائهم، وفلذات أكبادهم: ما نجده من تجلّد عمر بن عبد العـزيز -رحمه الله- عند وفاة ولده عبد الملك إذْ قال: الحمد لله الذى جعل الموت حتما واجبا على خلقه، ثمّ سوّى فيه بينهم فقال:

﴿ كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فليعلم ذوو النّهى أنهم صائرون إلى قبورهم، مفردون بأعمالهم. اهـ[2].

ووقف أبوذر الهمـدانيّ (ت ١٥٣هـ) على قبـر ابنه ذرّ فقـال: يا ذرّ، والله ما بنا إليك من فاقة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة.

يا ذر شغلنى الحـزن لك عن الحزن عليك، ثم قال: اللهم إنك وعدتنـى بالصبر على ذرّ رحمتك.

اللهمّ إنىّ قد وهبتُ مـا جعلتَ لى من أجر علـى ذرّ فلا تعرّفه قـبيحـا من عمله، فإنك أجود، وأكرم.

فلمّا انصرف عنه التفت إلى قبـره، وقال: يا ذرّ قد انصرفنا وتركناك، ولوأقمنا ما نفعناك. اهـ.

النوع الثانى: ما يوجّه للأب عنـد وفاة ولده من قريب، أو صديق بما يـحثه على الصبر والسلوان، ويدعوه إلى الاحتساب وطلب الأجر، ويبيّن له سنة الله فى ذلك.

وهذا النمط من التعزية نراه مبثوثا هنا وهناك فى كتب التراث والتعازى.

فقد عزّى علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه- ت ٤٠هـ) الأشعث بن قيس (رحمه الله تعالـى- ت ٤٠هـ) فى وفاة ابنه، فـقال له: إن تحـزن فقد اسـتحـقّت ذلك منك

(١) هذا الحديث رواه البخارى عن ابن مسعود -رضى الله عنه- فى كتاب الكسوف: حديث رقم/ ٩٧٥.

(٢) انظر: التعازى والمراثى، لأبى العباس المبرّد تحقيق محمد الديباجى ص ٤٦-٤٧.

الرحم، وإن تصبر فإن فى الله خلفا من كلّ هالك، مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت آثم. اهـ[١].

واستشهد ابن لأبى أمامة الحمّصىّ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى أمامة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه، فقد بلغنى الذى ساقه الله إلى عبد الله بن أبى أمامة من الشهادة، فقد عاش بحمد الله مأمونا، وأفضى إلى الآخرة شهيدا، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله. اهـ[٢].

وكتب إبراهيم بن يحيى الأسلمى إلى المهدى يعزّيه فى ابنته: أمّا بعد: فاعلم أن الماضى قبلك هو الباقى بعدك، وإن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم عليهم من النعمة فيما يعافون منه. اهـ[٣].

وكتب ابن المقفع تعزية فى ولد، فقال: أعظم الله على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرزء ثوابك، وعجّل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه. اهـ[٤].

وعزّى ابن المقفع فى بنت، فقال: جدّد الله لك من هبته ما يكون خلفا لك بما رزئته، وعوضا عن المصيبة بها، ورزقك من الثواب عليها أضعاف مارزأك به منها، فما أقل كثير الدنيا فى قليل الآخرة، مع فناء الدنيا، ودوام الآخرة. اهـ[٥].

وعزّى صالح المرّى رجلا فى ابنه، فقال له: إن كانت مصيبتك لم تُحْدث لك موعظة فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك، واعلم أن التهنئة على آجل الثواب، أولى من التعزية على عاجل المصيبة. اهـ[٦].

إلى غير ذلك من التعازى التى كان الناس يطيّبون بها مشاعر الآباء، ويداوون جراحهم. اهـ.

ثالثا: تعزية الأبناء:

لـمَّا كان الموت لا يفرّق بين صغير وكبير، وعظيم وحقير، فكثيرا ما يعانى الأبناء من صدمة موت الآباء، حين يوارونهم الثرى، ويدسّونهم فى التراب، فقد كانوا ملء أعينهم وقلوبهم، وبهجة نفوسهم وخواطرهم:

---

(١) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٣٠٤، ونهاية الأرب حـ٦/ ١٦٥.

(٢) انظر: التعازى والمراثى ص ٤٧.

(٣) انظر: البيان والتبيين حـ٢/ ٧٤.

(٤، ٥) انظر: جمهرة رسائل العرب حـ٣/ ٥٦.

(٦) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٣٠٤.

لـمَّا توفى علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه: قـام ابنه الحسن بن علىّ -رضى الله عنه- فقال: أيها الناس إنه قبض فيكم الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون، ولم يدركه الآخرون، قـد كان رسول الله ﷺ يبعـثه فيكتنفه جـبريل -عليه السـلام- عن يمينه، وميكائيل -عليه السلام- عن شماله، لا ينثنى حتى يفتح الله له.

ما ترك صفراء، ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أعدّها لخادم له. اهـ[١].

وسمع الحـسن البصري -رحمـه الله تعالى- جارية واقـفة على قبر أبيـها، وهى تقول: يا أبت مثل يومك لم أره، فقال: الذى لم ير مثل يومه أبوك. اهـ[٢].

ووقفت أعرابيـة على قبر أبيها، فقـالت: يا أبت إن فى الله -تبارك وتعالى- من فقدك عوضا، وفى رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة، ثم قالت: اللهمّ نزل بك عبد مقفرا من الزاد، غنيـا عما فى أيدى العباد، فقيرا إلى مـا فى يدك يا جوَاد، وأنت خير من نزل به المؤمنون، واسـتغنى بفضله المقلّون، وولج فى سـعة رحمتـه المذنبون، اللهم فليكن قرَى عبدك منك رحمتك، ومهاده جنتك، ثم انصرفت. اهـ[٣].

رابعا: تعزيةَ الإخوة:

لقد أحسّ المـعزّون بالأصل المشـترك الذى يجمع بـين الأخوين، والذى يكون غالبا غير قابل للتعويض كما هو الشأن فى فقد الأبناء والبنات.

كما أن الأخ يستمدّ قوّة علاقته بأخيه مع احترام الوالدين، وصلة الأبناء بهما، على نحو ما نجد فى رثاء متمّم بن نويرة (ت ٣٠ هـ) لأخيه مالك بن نويرة (ت ١٢ هـ) عندما حاوره عمر ابن الخطاب -رضى الله عنه- وقـال له: لم أرك رثيتَ زيدا بن الـخطاب (ت ١٢ هـ)، كمـا رثيتَ أخاك مالكا، فقال: إنّه يحرّكنى لمالك ما لا يحركنى لزيد. اهـ[٤].

ونجد نماذج من هذه التعازى فى آثار الجاهليـة، فقد قال أكثم بن صيفىّ (ت٩هـ) لـ عمرو بن هند اللخـمىّ عند وفاة أخيه: أيها المـلك إنّ أهل هذه الدار سفْر لا يحلّون عُقَـدَ الرحال إلا فى غـيرها، وقد أتاك مـا ليس بمردود عنك، وارتحل عـنك ما ليس براجع إليك، وأقام مـعك من سيظعن ويدعك، فما أحـسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعهـا، فما بقاء الفرع بعد أصله؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشرّ من الشرّ فاعله. اهـ[٥].

(١) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ١٣٨.
(٢) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٤٣.
(٣) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٤٢.
(٤) انظر: التعازى والمراثى ص ٢١.
(٥) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٦٠.

فهذا أكثم بن صيفى : -وهو من حكماء العرب ، ومن فصحاء الجاهليّة- تنبض فى كلماته الحكمة ، ويسفر قوله عن التسليم بالقدر ؛ لأنه يتفق مع المسلمين فى الحديث عن حقيقة الموت ، وألم الفراق .

ووقف محمد ابن الحنفيّة : -وهو من أولاد على بن أبى طالب (رضى الله عنهما - ولد سنة ٢١هـ ، وتوفى سنة ٨١هـ) على قبر أخيه الحسن بن علىّ -رضى الله عنهما- فخنقته العبرة ، ثم قال : يرحمك الله أبا محمد ، فلئن عزّت حياتك ، فلقد هدّت وفاتك ، ولنعم الروح روح ضمّه بدنك ، ولنعم البدن بدن ضمّه كفنك ، وكيف لايكون كذلك وأنت بقيّة ولد الأنبياء ، وسليل الهدى ، خامس أصحاب الكساء[١] .

غذّتك أكفّ الحقّ ، وربّيت فى حجْر الإسلام ، فطبتَ حيًّا ، وطبتَ ميّتا ، وإن كانت أنفسنا غير طيّبة بفراقك ، ولاشاكّة فى الخيار لك . . اهـ[٢] .

فهذا المعنى فى الصلة الوثيقة بين الأخوين ، وعدم التعويض عن الأخ بعد فقده ما نستشعره من قول معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنهما ، فقد وقف على قبر أخيه عتبة -رضى الله عنه- فدعا له ، وترحّم عليه ، ثم التفت إلى مَنْ معه ، فقال : لو أن الدنيا بنيت على لسان الأحبّة ما نسيت عتبة أبدا . . اهـ[٣] .

يفهم من هذا أن معاوية -رضى الله عنه- أعلن حُزْنه ، وألمه على فقد أخيه ، وأنه لن ينساه مادام حيًّا .

ولـمّا مات أخو مالك بن دينار بكى مالك ، وقال : يا أخى لاتقرّ عينى بعدك حتّى أعلم أفى الجنة أنت أم فى النار ، ولا أعلم ذلك حتى ألحق بك . . اهـ[٤] .

وعزّى صالح المرّى رجلا فى أخيه ، فقال : إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثت لك خشية ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثت لك جزعا ، فبئست مصيبتك . . اهـ[٥] .

وقال المبرّد : مات أخ لبعض ملوك اليمن : فعزّاه بعض العرب ، فقال : اعلم أن الخلق للخالق ، والشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، ولابدّ ممّا هو كائن ، ولاسبيل إلى رجوع ما قد فات . . اهـ .

---

(١) أصحاب الكساء هم: رسول الله ﷺ، وفاطمة، وعلىّ، والحسن ، والحسين -رضى الله عنهم -: جلّلهم النبى ﷺ معه بكساء، ودعا لهم فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصّتى، فأذهب عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيرا»، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) انظر : العقد الفريد حـ٣/ ٢٤٠ .

(٣) انظر : العقد الفريد حـ٣/ ٢٤٤ .

(٤) انظر : التعازى والمراثى ص ٥٢ .

(٥) انظر : البيان والتبيين حـ٤/ ٧٤ .

خامسا: تعزية الأزواج:

العلاقة الزوجيّة صلة تُستَحدثُ بعقد الزواج، وتتجدّد بالنكاح، ولـكنها لكثرة الاختلاط، وطول العشرة، وانكشاف الأعماق بين الزوجين تتوطّد فيها العلاقة، وتقوى الرابطة، يستكمل فيها الرجل عناصر وجوده، وأهمية حياته، كما تحقق المرأة فيها كوامن عواطفها، واستقرار حياتها، قال الله - تعالى - :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وعند الموت تتفجّر هذه المودّة صيحات دامية، وعبارات باكية، وتشتعل تلك الرحمة أحاسيس.

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة كثيرة من رثاء الأزواج، والزوجات تدلّ على ما يصيب أحدهما عند فراق صاحبه من الحزن، والألم، قال محمد بن السائب الكلبيّ (ت١٤٦هـ):

وقفت نائلة الكلبيّة على قبر زوجها: عثمان بن عفّان -رضى الله عنه- فترحّمت عليه، ثم قالت:

ومالى لا أبكى وتبكى صحابتى ∴ وقد ذهبت عنّا فضول أبى عمرو

ثم انصرفت إلى منزلها، فقالت: إنى رأيت الحُزْن يَبْلى كما يَبْلى الثوب، وقد خفتُ أن يبلى حزنى على عثمان فى قلبى، فكسّرت أسنانها، وقالت: والله لايقعد منّى رجل مقعد عثمان أبدا. اهـ[1].

فهذا حزن ملأ على زوجة عثمان -رضى الله عنه- شغاف قلبها، فعمدت إلى فيها فكسّرت أسنانها، لتصدّ رغبة الطامحين إلى الزواج منها؛ حتىّ لاتنسى زوجها الأوّل، وهذا الإحساس القويّ فى العلاقة بين الزوجين لم يترك رجلا حصيفا مثل على بن أبى طالب -رضى الله عنه-؛ فإنه لمّا دفن زوجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ تمثّل عند قبرها فقال:

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة ∴ وكل الذى دون الممات قليل
وإنّ افتقادى واحدا بعد واحد ∴ دليل على ألا يدوم خليل[2]

(١) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٤٢.

(٢) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٤١، والبيان والتبيين حـ٣/ ١٨١، والتعازى والمراثى ص ٢٠٥.

سادسا: تعزية الخلفاء:

لقد كان للخليفة فى المجتمع الإسلامى مكانة الركن من البيت؛ لأنه شعار الأمّة، وعنوان وحدتها، ورمز قوّتها، وازدهارها، لذلك فإن وفاته تمثل انهداما فى كيانها.

وأكثر ما تأتى التعزية فى الخليفة الدعاء له بالأجر، والثواب على ما أعطى الأمة من جهد وعمل، على نحو ما يقول مسلمة بن عبد الملك بن مروان عندما دخل على عمر بن عبد العزيز، وهو يحتضر؛ فوقف عند رأسه، وقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنّا خيرا؛ فلقد ألنت لنا قلوبا كانت علينا قاسية، وجعلت لنا فى الصالحين ذكرا. اهـ[(1)].

ولـمّا توفّى أبو جعفر المنصور قدمت وفود المعزّين على ابنه المهدى، وفيهم أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاّد البصرى، وكان عالما محدّثا، فتقدّم إلى التعزية، فقال: آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلّفه له، فلامصيبة أعظم من مصيبة إمام، ولاعقبى أفضل من خلافة الله على أوليائه، فاقبل من الله أفضل العطية، واصبر على الرزية. اهـ[(2)].

ومن ذلك أنّ ابن عُتْبة دخل على المهدى يعزّيه فى وفاة والده المنصور، فقال: آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلّفه له أمير المؤمنين بعده، فلامصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين، ولاعُقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين، فاقبَل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عنده أعظم الرّزية. اهـ[(3)].

وتكاد تكون هذه الطريقة فى الجمع بين التهنئة بالخلافة، والتعزية فى الخليفة السابق عادة متّبعة، فيما كان يقال من التعازى بين أيدى الخلفاء الجُدُد، على إثر وفاة من قبلهم.

ومن ذلك تعازى غسّان بن عبد الحميد فى الخلفاء العباسيّين التى قال فى إحداها: أمّا بعد: فإن الله جعل خلافته حفظا لدينه، ورحمة لعباده، ثم جعل لهم أولياء خلفاء يتوارثونها، ويتداولون الكرامة من الله بها، فتنقضى مدّة ماضيهم لخيرة الله إيّاه، وتأتى خلافة باقيهم لاصطناع الله له، فنحمد الله الذى جعل فيكم أهل تلك

(١) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٣٠.
(٢) انظر: العقد الفريد حـ٣/٣٠٨.
(٣) انظر: البيان والتبيين حـ٢/ ١٩٢.

الخلافة الذيـن جعلكم لها وارثا، فكان منهم الماضى الذى كـانت له، والباقى الذى صارت إليه، والحمد لله على ما كانت عليه حـياة أمير المؤمنين، ووفاته من كرامة الله إيّاه، وعلى وضعه الخلافة عند أمير المؤمنين الباقى، ونسأل الله أن يعظم فى الماضى الأجر، ويمنحك من الباقى أفـضل الحظ، ويعينك فى المصيبة علـى أفضل الصبر، وفى النعمة على أفضل الشكر. اهـ[1].

وهكذا نجـد شبيب بن شـيبـة فى تعزيته لأبى جـعفـر المنصور، فى أخـيه أبى العباس، حين بيّن له الأجر فى احتساب موت أبى العباس والصبر على فقده، والشكر لله على ما أعقب المنصور من الخلافـة فقال له: جعل الله ثواب ما رُزئتَ به لك أجرا، وأعقبك عليـه صبرا، وختم لك ذلك بعافيـة تامّة، ونعمة عامّة، فـثواب الله خير لك منه، وما عند الله خير له منك. اهـ[2].

وكتب إبراهيم بن إسحاق البغـدادى (ت٢٨٥هـ) إلى بعض الخلفاء يعزّيه فقال: إنّ أحقّ من عـرف حقّ الله فيهـا أخذ منه من عـرف نعمـته فـيما أبـقى عليه، يا أمـير المؤمنيـن إنّ الماضى قبلك هو البـاقى لك، والباقى بعـدك هو المأجـور فيك، وإن النعمة على الصابرين فيما ابتلوا به أعظم منها عليهم فيما يُعافون منه. اهـ[3].

وربما أبدى بعض الخلفاء تجلُّدا، واحتمالا فى تقـبل المصيبة، وجعل فى ذلك عظة لمسلك إيمـانى أراد أن يبثه فى الرعيّـة، على نحو ما صنع الوليد بن عـبد الملك حينما عزّاه مـحمد بن الوليد بن عتبـة، فقال: يا أمير المؤمنين لايشـغلك ما أقبل من الموت إليك، عمّن هو فى شغل مما دخل عليك، وأعدد لنزوله عُدّة تكون لك حجابا من الجزع، وسترا من النار.

فقال: يا محمد أرجو أن لاتكون رأيت غفلة ستنبّه عليها، ولاجزعا يُستتر منه.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين إنه لو استغنى أحد عن موعظة بفضل لكنته، ولكنّ الله يقول: ﴿ وذَكِّر فَإِنَّ الذِّكرَىٰ تَنفَعُ المُؤمِنِينَ ﴾. اهـ[4] [الذاريات: ٥٥].

وهذا يدّل على حرصهـم فى التعزية على التذكيـر، والتنبيه، والاعتـبار، وأخذ العظة، ولو كـان المعزَّى مـمّن أظهر التـصبّر والجلد، أو كـان على حظ من العلم، والفقـه فـى الديـن، أو على منـزلة من المكانة والجاه، وربـما لمحـوا هذا الجانب،

(١) انظر: جمهرة رسائل العرب حـ٣/١٠٨.
(٢، ٣) انظر: العقد الفريد حـ٣/٣٠٨.
(٤) انظر: عيون الأخبار حـ٣/٥٨.

وما يكون عليه العلية من وعى دينىّ وثقافىّ وخلقىّ، كما نجد فى تعزية أحد الناس إلى بعض الأمراء إذْ قال له: الأمير أذكَر لله من أن يذكّر به، وأعلم بما قضاه على خلقه من أن يدلّ عليه، وأسلكُ لسبيل الراشدين في التسليم لأمره، والصبر على قَدَره، من أن ينبَّه من ذلك على حظه، أو أن يحتاج معزِّيه عند حادث المصيبة إلى أكثر من الدعاء فى قضاء حقِّه. اهـ[1].

ولمحوا فى تعازيهم أحيانا رجاحة عقل الخليفة، وعظم مرتبته التى لاتضعضعها المصائب، على نحو ما نجد من موقف عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حين توفيت أخته، فدنا إليه رجل، فعزّاه فلم يردّ عليه، فلما رأى الناس ذلك أمسكوا عنه، ومشوا معه، فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه، وقال: أدركت الناس وهم لايُعَزون بامرأة إلا أن تكون أمّا، انقلبوا رحمكم الله. . اهـ[2].

ونجد هذا الموقف يتكرّر فى تعزية سعيد بن حميد لمحمد بن عبد الله الخزاعىّ إذْ قال له: قد بلغنى ما حدث من قضاء الله فى أمِّ الأمير، فنالنى من ألم الرّزيّة، وفاجع المصيبة، ما ينال خدمه الذين يحضهم ماخصّه من النعم، ويتصرّفون معه فيما تناوله الله به من المحن، فأعظم الله للأمير الأجر، وأجزل له المثوبة والذخر، ولا أراه فى نعمة عنده نقصا. اهـ[3].

-والله أعلم-

---

(١) انظر: عيون الأخبار جـ٣ / ٦٢.

(٢) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٣١٠.

(٣) انظر: عيون الأخبار جـ٣ / ٦٣.

الموضوع العاشـــــر

موضوعات التعــازى

وقد ذكرت منها الموضوعات الآتية:

أولا : الموت سنة ماضية:

إن الذى يتأمل هذه الحياة الدنـيا بعين العقل والبصيرة ، ليـدرك أن مصير كلّ حيّ فيها إلى الموت ؛ لأنه سنة ماضية قدّره الله -سبحانه وتعالى- على كل المخلوقين .

وقـد بين الله فـى كتابـه الكريـم هذه الحقيـقة فى أكثر من آية ، فمن ذلك قول الله - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفسٍ ذَائقَةُ المَوت وَإنَّمَا تُوَفَّونَ أُجُوركُم يَومَ القيَامَة فَمَن زُحزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدخلَ الجَنَّةَ فَقَد فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وقولـه - تـعالـى - :﴿ كُلُّ مَن عَلَيهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبقَىٰ وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإكرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]

وقوله - تـعالى - : ﴿ قُل إنَّ المَوتَ الَّذي تَفرُّونَ منهُ فَإنَّهُ مُلاقيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إلَىٰ عَالمِ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُم تَعمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨] .

إلى غيـر ذلك من الآيات الكريمـة الدالة على هذا المعنى فـهل رأينا مخـلوقا استطاع أن ينجو بنفـسه من الموت؟ أو يمتلك القدرة على تأخيـر الموت عن نفسه لحظة من اللحظات مهـما أوتى من أسباب القوّة والسلطان؟ لأن الأعـمار إنما هى آجال محدّدة :

قال الله - تعـالى - : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَستَأخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَستَقدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] .

ومن هنا أكـثر المـعزّون من الحـديث عن الموت على أســاس أنه قـضاء مـبرم لامخرج للأحياء منه حـتى ولو احتموا منه بالحصون الممنّعـة ، أو البروج المشيدة ، كما قال الله - تعالى - :

﴿ أَينَمَا تَكُونُوا يُدرككُّمُ المَوتُ وَلَو كُنتُم في بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] .

لـمَّا احتضر عمرو بن العاص -رضى الله عنه- جمع بنيه ، وقال لهم : يا بَنِيّ لن تغنوا عنّى من أمر الله شيئا ، فقالوا : يا أبانا إنه الموت ، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا . اهـ[1] .

---

(١) انظر : العقد الفريد حـ٣/ ٢٣٣ .

نعم. إنه المـوت، فـمن الذى يسـتطيع أن يقف فى وجـه المـوت، أو يردّه عن أحبابه، أو أقربائه، حتى لو كانت نفسه فداء، وتضحية.

قال ابن قتيبة: قرأت فى كتاب تعزية: لا لوم على دمعة لا تُملَكُ، ولا على ألم فى القلب لا يُدفع أن يظهـر فـيك، واعلم أن فـرق ما بين ذى العـقل، وذى الجـهل فى مصيبتهما تعجّل العاقل من الصبر ما يتأجّل الجاهل. . اهـ[1].

ولا تفتأ الحـياة تلاحق الأحياء بالمـصائب، والنوائب؛ اختبـارا من الله لعباده، وامتحـانا لإيمانهم، حتى يصدق الإيمان، وتثـبت صحة العقيدة، فـلا يقدر أحد أن ينجو منها، أو أن يدفعها بماله، أوجـسده، ولو استطاع الناس دفع المصائب لدفعوها بأنْفَس ما يملكون، حتى يسلموا منها.

قال ابن قتيبة: قرأت فى كتاب تعزية: لو كانت النوائب مدفوعة عن أحد بكثرة من يقيه ذلك من إخوانه، ويفديه منه بالأخصّ من أعزّته، والأنفَس من ماله لسلمت. . اهـ[2].

كتب ابن المـقفع: أمّا بعد: إن أمـر الآخرة، والدنيا بيد الله هو يدبّرهمـا، ويقضى فيهما ما يشاء، لا رادّ لقضـائه، ولا معقّب لحكمه، فإن الله خلق الخلق بقدرته، ثم كتب عليهم المـوت بعد الحياة، لـئلاّ يطمع أحد من خلقه فى الـخلود فى الدنيا، ووقّت لكل شىء ميقـات أجل لا يستأخرون عنه ساعـة ولا يستقدمون، فلـيس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت لا يرجو أن يخلّصه من ذلك أحد، نسأل الله خير المنقلب. . اهـ[3].

وإزاء هذه السنّة الماضيـة، والحكمة الصادقة التى لا تردّ دعا المـعزّون إلى الرضا بأمر الله، والتسليم بحكمته.

قال غسّان بن عبد الحميد فى تعزية له: أما بعد: فإن الله لم يرض لنفسه أن يُمضى قضاءه فـيما وافق العباد، أو خالفـهم، ولم يرض من العباد إلا أن يسلّموا لأمره فـيما أحبّـوا، أو كرهوا ممّـا أنزل الله بهم، فقـضاء الله غيـر مردود، وأمـره غير مـدفوع، والساخط لذلك غير معتب، وللراضى به أفضل العوض. . اهـ[4].

وقال غسّان بن عبـد الحميد معزّيًا: لم ينزل بك من المصيـبة بأخيك إلا ما رأيته نزل بالناس فى أحـبّائهم قبلـك، فلا أحسـبك رأيت منهم صابرا إلا غـبطته، ولا جـازعا إلا عجّزته، فخذ لنفسك بالذى تغبط به غيرك، واحذر عليها الذى تعجّز فيه سواك. . اهـ[5].

(١) انظر: عيون الأخبار حـ٣/ ٥٥-٥٦.
(٢) انظر: عيون الأخبار حـ ٣/ ٥٦.
(٣) انظر: جمهرة رسائل العرب حـ٣/ ٥٧.
(٤) انظر: جمهرة رسائل العرب حـ٣ / ١٠٨.
(٥) انظر جمهرة رسائل العرب حـ٣ / ١٠٩.

وقال غسّان بن عبد الحميد فى تعزية أخرى: هذا الموت ممّا ساوى الله فيه بين الخلائق فقضى أن تذوقه كل نفس، ويُمْنَى به كل حىّ. فالمتقدّم فيه على أسوة ممّن قبله، وممّن بعده، وأنه سيلحقه الباقى كما سبقه الماضى، ومكاره الدنيا حالّة على من عمّر الدنيا، فإن الله خلقها للبلاء حين خلقها، وخلق أهلها على الابتلاء، فجعل لهم منها أطباقا يركبونها، وحالات ينتقلون فيها من محنة إلى مكروه، ونقص وعافية، فكل ذى سلامة وإن طالت، وذى عافية وإن تتابعت، لابدّ أن تناله المكاره، وتتصرف به الحالات، ويبلى بالخير والشرّ فتنة، وجميع العباد أسوة لأخيك فى الموت الذى أتى عليه، فاذكر ذلك عند مصيبتك. . اهـ[1].

ثانيا: إعلان الجزع:

يختلف موقف الناس، وإحساسهم من المصائب، والكوارث، والأحداث التى تمرّبهم كما هو مشاهد ومألوف، فنحن فى الوقت الذى نجد فيه من يستقبل الحادثة بالتفهم لها، والتعقل فيها، واللجوء إلى الحلم، والتسليم بالقضاء والقدر، نجد فريقا آخر يستقبلها بالتوتر العصبى، والانفعال الشديد، والجزع، والاضطراب، والهيجان، وذلك راجع لما فطر الله الناس عليه من اختلاف فى الاستعدادات، والتكوينات النفسيّة.

قال أبو العباس المبرّد: المصائب ما صغر منها، وماعظم تقع على ضربين: فالحزم والتسلّى عمّا لايغنى الغمّ فيه، والاحتيال لدفع ما يُدفع بالحيلة. . اهـ[2].

لهذا نجد هذين الصنفين من الناس فى خطين متوازيين، وواضحين فيما بين يدىّ من التعازى، ومن أحسن القول فى هذا المعنى فى الإسلام قول علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنهم- حين مات ابنه فلم يُرَمنه جزع، فسئل عن ذلك فقال: أمر كنّا نتوقعه، فلمّا وقع لم ننكره، وفى هذا فضل تسليم لقضاء الله -عزّ وجلّ-. . اهـ[3].

وهذا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يطلب من أبى قلابة[4] وقد ولى غسل ابنه عبد الملك أنّه إذا غسّله، وكفّنه أن يبلغه قبل أن يغطّى وجهه، ففعل، فلما نظر عمر إلى ولده قال بلسان المؤمن بقضاء الله وقدره: رحمكِ الله يا بُنىّ وغفرلك. . اهـ[5].

(١) انظر: جمهرة رسائل العرب حـ٣ / ١١١.
(٢، ٣) انظر: الكامل للمبرّد حـ٣/ ١٣٩٩.
(٤) هو عبد الله بن زيد الجرمى من أهل البصرة، كان من رجال الحديث، عالما بالقضاء (ت ١٠٤هـ).
(٥) انظر: التعازى والمراثى ص ٥٩.

فى هذه العبارة ما يدلّ على طمأنينة النفس، وهدوء البال، والانصياع إلى أمر الله، دون إعلان للجزع، أو إظهار للحزن والألم، وهكذا فعلت« فاطمة» -رضى الله عنها- لمَّا فرغ الناس من دفن رسول الله ﷺ فأقبلت على أنس بن مالك -رضى الله عنه- وقالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على وَجْه رسول الله ﷺ التراب؟

ثم بكت ونادت: يا أبتاه أجاب ربّا دعاه، يا أبتاه ربّه أدناه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه. اهـ[١].

فبكاؤها - رضى الله عنها - تعبير عن حالة نفسيّة استقبلت بها فقد أحبّ الآباء، وأفضل الرجال، وهو رسول الله ﷺ، ولكنها أنابت واكتفت بصلة رسول الله ﷺ بربّه، فذاك خير العزاء.

وقال عبدالرحمن بن عمر: دخلتُ على امرأة من نَجْد فى خِباء لها، وبين يديها ابن لها قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته، وعصبته، وسجّته، وقالت: يا ابن أخى، قلتُ: ما تشائين، قالت: ما أحق من ألبس النعمة، وأطيلت به النظرة أن لا يدع التوثّق من نفسه قبل حلّ عقدته، والحلول بعقوته[٢]، والمحالة بينه وبين نفسه.

قال: وما يقطر من عينيها دمعة صبرا واحتسابا، ثم نظرت إليه، فقالت: والله ما كان ماله لبطنه، ولا أمره لعرسه.. اهـ[٣].

وأكثر من ذلك: أنّ أعرابيا مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد، فدفنهم وعاد إلى مجلسه، فجعل يتحدّث كأن لم يفقد أحدا، فليم على ذلك، فقال ليسوا فى الموت ببديع، ولا أنا فى المصيبة بأوحد، ولا جدوى للجزع، فعلام تلومونني؟.. اهـ[٤].

وقال أبو على الرازى: صحبت الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) ثلاثين سنة فمارأيته ضاحكا، ولا متبسّما إلا يوم أن مات ابنه علىّ، فقلت له فى ذلك، فقال: إنّ الله أحبّ أمرا فأحببت ما أحبّ الله.. اهـ[٥].

فهذا مقياس إيمانى عالى المرتبة لا يقدر عليه إلا من أوتى الحكمة، وأشرقت نفسه، وصفت خواطره، حتى انساقت عواطفه لأمر الله، فأحبّ ما أحبّ الله، ولذلك يستقبل المصيبة بوفاة ولده بالتبسّم؛ لأن فى ذلك موافقة لإرادة الله - تبارك وتعالى.

---

(١) انظر: العقد الفريد جـ٣/ ٢٣٨.

(٢) العقْوة: الساحة وما حول الدّار، والمراد بها هنا: القبر.

(٣) انظر: العقد الفريد جـ٣/ ٢٤٣.

(٤) انظر: نهاية الأرب جـ٥/ ١٦٤.

(٥) انظر: نهاية الأرب جـ٥/ ١٦٥.

ونحن نجد فريقا آخر يتملكه الألم، والجزع؛ لفقد أحبائهم، وذويهم، ويبدو عليهم الألم، والضجر.

قال ابن السمّاك: المصيبة واحدة، فإن كان فيها جزع فهى اثنتان.. اهـ[١].

ولـمَّا مات محمد بن الحجاج جزع عليه والده جزعا شديدا، فقيل له: اتق الله، واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. اهـ[٢].

فهذا رجل قد تملكه الجزع، وسيطر عليه الحزن، وأسف على فراق ولده، وقد بدت فتوّته، وشبّ عن الطوق، وبدت فيه صفات الرجولة، لكنه لما ذُكِّر بالتقوى، ودُعى إلى الاسترجاع استعاد عزْمه، وقوّته، واتزانه، واحتكم إلى قول الله - تعالى -:

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٦]

ولا يدّل الجزع على الميت على نقص فى الإيمان، أو ضعف فى العقيدة، أو فتور فى الدين، فإنا نجد من المسلمين المشهود لهم برجاحة العقل، وسلامة العقيدة، مايدلّ على أثر الجزع عليهم؛ لأن ذلك شىء نفسىّ لا يقف فى طريقه أى شىء.

قال الفضيل بن عياض: ما جزع أحد من أصحابنا عند الموت، ما جزع سفيان الثورى، فقلتُ: يا أبا عبدالله: ما هذا الجزع؟ أليس تذهب إلى مَنْ عبدتَه، وفررت ببدنك إليه؟ فقال: ويحكم إنّى أسلك طريقا لم أعرفه، وأقدم على ربّ لم أره.. اهـ[٣].

ولـمَّا احتضر إبراهيم النخعىّ (ت ٩٦هـ) جزع جزعا شديدا، فقيل له فى ذلك، فقال: وأى خطر أعظم إنما أتوقع رسولا يرد علىَّ من ربّى: إمّا بالجنة، وإمّا بالنار.. اهـ[٤].

ومن مهيّجات الجزع ما يراه الإنسان من أسباب الموت، كما فعل حُجْر بن عدى[٥] حينما قُدّم للقتل، فإنه سأل أن يُمْهل حتى يصلى ركعتين، ثم ظهر منه جزع شديد، فقال له قائل: أتجزع؟ فقال: وكيف لا أجزع؟: سيف مشهور، وكفن منشور، وقبر محفور، ولست أدرى أيؤذن بى إلى الجنة، أم إلى النار؟.. اهـ[٦].

وهذا يقين المؤمن الذى يكون بين الخوف والرجاء، فإنه مع حسن ظنه بالله - تعالى - يظلّ مفطورا على الخوف من الموت... اهـ[٧].

(١) انظر المرجع السابق. (٢) انظر: العقد الفريد جـ٣/ ٢٣٠.

(٣) انظر: العقد الفريد جـ٣/ ٢٣٣، ٢٣٤. (٤) انظر: التعازى والمراثى ص ١٣٢.

(٥) هو: حُجْر بن عدىّ الكندى -رضى الله عنه- صحابّى جليل ومن الشجعان الأخيار، ثم كان من أصحاب علىّ -رضى الله عنه-، وحضر معه موقعتى الجمل وصفّين، ثم أمر معاوية بقتله سنة ٥١هـ. انظر: طبقات ابن سعد جـ٦/ ١٥١.

(٦) انظر: الكامل للمبرِّد جـ٣/ ١٤٥٠. (٧) انظر: نهاية الأرب جـ٥/ ١٦٤.

وعلى هذا فإنّ أساليب التعبير عن ذلك الجزع تختلف ما بين تخوّف، وتهيّب .

ثم لا يلبث ذلك أن يتلاشى بما أودع الله - تعالى - فى نفس الإنسان من تصبّر، وسلوان عن المصيبة . . . اهـ .

ثالثا: طلب الأجر والمثوبة:

لـمَّا كان الميّت مُقدما على ربه - عزّ وجلّ - ، وليس له إلا ما قدّم فى حياته من خير، أو شرّ، ولا يدرى أى الكفّتين أرجح؟ ولا يُعْلم مصيره فى ذلك اليوم الذى يحاسب فيه على كل صغيرة وكبيرة ممّا قدّم فى هذه الحياة الدنيا، ولـمَّا كانت الرحمة من الله -سبحانه وتعالى- هى الملجأ الذى يستغرق ذنوب العاصين، ويتجاوز فيه الله عن خطاياهم، ويفتح باب الأمل بالنجاة من العذاب لمن تاب منهم؛ لذلك عوّل المعزّون على الدعاء للميت بالرحمة، والمغفرة، والأجر، والمثوبة .

لـمَّا مات الأحنف بن قيس قامت امرأة على قبره، فقالت : لله درّك من مُدْرج فى كفن، نسأل الله الذى فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الخير دليلك، وأن يوسع الله لك فى قبرك، ويغفر لك يوم حشرك، فوالله لقد كنت فى المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا، ولقد كانوا لقولك مستمعين، ولرأيك متبعين، فقال الناس: ما سمعنا كلام امرأة أبلغ من هذه. . اهـ[(١)] .

وقال عبدالله بن طاهر بن أبى دُلَف (ت ٢٢٦هـ) : المصائب حالَّة لابدَّ منها، فمنها ما يكون رحمة من الله، ولطفا بعبده، وآية ذلك أن يوفقه الله للصبر، ويلهمه الرضا، ومنها ما يكون سخطا وانتقاما، ولم تزل عادة الله على الاختلاف، والائتلاف. . اهـ[(٢)] .

وقال ابن قتيبة : قرأت تعزية لبعض الكتّاب قال فيها : أسأل الله أن يسدَّ بك ما ثلمت الأيام من مكانة، ويعمّر ما أضلّت من مشاهده وأوطانه، وأن يستقبل لكم أيامكم بأحسن ما أمضاها لمن مضى منكم، وأن يتولاكم ويتولانا فيكم بما هو أهله. . اهـ[(٣)] .

رابعا: الدّعوة إلى الصبر:

الصبر باب واسع من أبواب الإيمان، وعلامة مميزة للمؤمن حين يحتسب ما يلمّ به من المصائب عند ربه - عزّ وجلّ - ، فيكون ذلك مدعاة للتصبّر، والتجلّد، ولا تخلو الدنيا من منغصات تلمّ بالمرء مهما ارتفع شأنه، وزادت قوّته، وامتدّ ثراؤه، فلن تمضى الحياة كلها على منوال واحد من السعادة، والرخاء، ومن الذى لم يُفجَع بفقد حبيب، أو لم يعان من مرض مبرّح؟ .

(١) انظر : الكامل للمبرِّد جـ٣/ ١٤٥٧ .

(٢، ٣) انظر : عيون الأخبار جـ٣/ ٥٥ .

لكنّ المؤمن من منطلق إيمانه بقضاء الله وقدره، وحكمته وعفوه، وطلب الأجر والمثوبة من خالقه تعالى يستقبل هذه المواقف الرهيبة بثبات، ورباطة جأش.

كان الحسن البصرى -رحمه الله تعالى- يقول: الحمد لله الذى كلفنا مالو كلّفنا غيره لصِرْنا فيه إلى معصيته، وآجرنا على ما لا بد لنا منه. . اهـ[1].

وكان علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - يقول عند التعزية: عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم، وإليه يعود الجازع. . اهـ[2].

وقال للأشعث بن قيس: إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور . . اهـ[3].

ووقفت «عائشة» أم المؤمنين -رضى الله عنها- على قبر أبيها أبى بكر -رضى الله عنه- فقالت: نضّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وكنت للآخرة معزّاً بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك، فإنّ كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك، وحسن العوض منك، فأنا أستعيض الله منك بالاستغفار لك، فعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لك، ولا زارية على القضاء فيك . . اهـ[4].

فهذه عواطف سيّدة ترى أباها قد فارق الحياة، فاشتعل قلبها بالحزن على فراقه، لكنّ وقار الإيمان، وجلال اليقين يُهدّئان عواطفها، ويُحدّدان ألفاظها، فإذا بها تأتى بعبارات مجلّلة بالإيمان، محتسبة عند الله الأجر والثواب.

وقال علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- لـمّا توفّى أبو بكر -رضى الله عنه: رحمك الله أبا بكر، كنت أوّل القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشدّهم يقينا، وأعظمهم عناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحربهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله ﷺ خلقا، وفضلا وهديا وسمتا، فجزاك الله عن الإسلام، وعن رسول الله، وعن المسلمين خيرا، صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا. . اهـ[5].

فالعالم أجْمع يجد عليّا بن أبى طالب -رضى الله عنه- يتماسك فى وقت اشتدت فيه المحنة، وعظمت الرزيّة بوفاة أبى بكر -رضى الله عنه- فيصبر، ويحتسب.

(١ : ٣) انظر: العقد الفريد جـ٣/ ٣٠٤.
(٤) انظر: البيان والتبيين جـ٢/ ٣٠٢.
(٥) انظر: العقد الفريد جـ٣/ ٢٤٠، ٢٤١.

وتختلف صفة الصبر ومقداره على حسب مقدار المصيبة، ومنزلة المصاب: فهذا علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- مع ما آتاه الله تعالى من الصبر، ورزانة العقل، يقف على قَبْر النبى ﷺ ساعة دفنه، ويقول: إن الصبر لجميل إلاّ عنك يا رسول الله، وإن الجزع لقبيح إلاّ عليك، وإن المصاب بك لجَلَل.. اهـ[١].

من هذا تختلف درجة الصبر، باختلاف منزلة الأبناء عند آبائهم فإنّ منهم من ينال الحظوة عند أبيه، فيكون الحزن عليه شديدا، وربما كانت الدعوة إلى الصبر منطلقة من المقارنة بين فوائد الدنيا ومصائبها، وبين الأجر والجزع، ممّا يحيل المصيبة إلى محاكمة عقلية تقلل من أثرها، وتهوّن من وقعها، فيكون ذلك مدعاة للتجلد والصبر.

كما فعل ابن السمّاك حين عزّى الرّشيد فى موت أحد أبنائه إذْ قال له:

إن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه؛ فإنه حين قبضه أحرز لك هبتَه، ولو سلم لم تسلم من فتنته.. اهـ[٢].

وممّا يدعو إلى الصبر إدراك ألاّ مفرّ من الموت، وتذكر ما بعده من الشدائد والحساب، وهذا ما نجده واضحا فى كلام أبى بكر -رضى الله عنه-، فقد كان إذا عزّى رجلا قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، الموت أهون ممّا قبله، وأشدّ ممّا بعده، اذكروا فقد رسول الله ﷺ تصغر مصيبتكم، وعظم الله أجركم.. اهـ[٣].

خامسا: مخاطبة القبور:

حين يستحضر المرْء أن إنسانا كان بالأمس حيّا يتفاعل معه، ويتجاذب معه أطراف الحديث، ويعطيه، ويأخذ منه، يجول ويتحرك، يبتسم ويضحك، يتكلم ويتحدث، ثمّ ما هو إلاّ أن مات فغدا تحت التراب جثة هامدة، لايردّ جوابا، ولا يستجيب لنداء، قد ذهبت عنه كل تلك السمات التى تدفع الحياة فى عروقه، وشرايينه، وفوق ذلك تجثم عليه الأتربة، والصخور، ولا يملك الدفاع عن نفسه، وقد كان بالأمس ملء السمع والبصر، بل كان قطعة من أفئدة محبّيه، وبسْمة بين أهله وذويه، عندئذ يصبح القبر وما ينتشر حوله من قبور تراكمت فيها جثث الموتى بين شقىّ وسعيد صرخة مدوّية فى أعماق البشرية اليقظة، لهذا رأينا كثيرا من الآداب النثرية عند العرب تناولت مخاطبة القبور، وتصف مشاعر الناس حيالها فى قالب من التعزية طورا، والتأسّى والاعتبار طورا آخر:

---

(١) انظر: نهاية الأرب جـ٥/ ١٦٧.
(٢) انظر: عيون الأخبار جـ٣/ ٥٤.
(٣) انظر: عيون الأخبار جـ٣/ ٦٠.

كان عليّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- إذا دخل المقبرة قال: أمّا المنازل فقد سُكنت، وأمّا الأموال فقد قُسِّمت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعْرى ما عندكم؟ ثم يقول: والذى نفسى بيده لو أُذِن لهم فى الكلام لقالوا: إنّ خير الزّاد التقوى. . اهـ[١].

فالإمام عليّ -رضى الله عنه- يجعل من هذا الموقف حين شاهد القبور وقد تناثرت، وامتدّت كأنها تلخّص التاريخ، وتوحّد بين بنى البشر، ثم يصوغ من ذلك موعظة وتعزية للأحياء من الناس، وكأنه يقارن بين ما يتمتّع به الحيّ من نعمة السكن، وصلة الأزواج بأولئك الذين مضوا، وخلّفوا ما كان لديهم لغيرهم، ويخلُص من هذا إلى النتيجة التى يريد الوصول إليها وهى قول الله - تعالى -:
﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وما تزال الحياة من لدن درجت البشريّة على هذه الأرض تقذف بأبنائها فى خضمّ الموت، وأعماق التراب، وهو يهضم كل ما يؤول إليه، لايستعصى عليه غنيّ لغناه، ولايقوى على مقاومته قويّ لقوّته.

قال بعضهم: مررتُ بيزيد الرّقاشىّ وهو جالس بين المدينة والمقبرة، فقلت له: ما أجلسك هاهنا؟، قال: أنظر إلى هذين المعسكرين: فمعسكر يقذف الأحياء، ومعسكر يلتقم الموتى، ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل القبور الموحشة، فقد نطق بالخراب فناؤها، ومهّد بالتراب بناؤها، فمحلّها مُقْترب، لايتواصلون تواصل الإخوان، ولايتزاورون تزاور الجيران، قد طحنهم بكلكله البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى. اهـ[٢].

وقد كان عليّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- إذا دخل المقبرة قال:

السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، اللهمّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنّا وعنهم. . اهـ[٣].

وقد كان النبى ﷺ يعلّم أصحابه كيفيّة التسليم على أهل القبور:

قال بريدة -رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا -إن شاء الله- بكم للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية». . اهـ[٤].

---

(١) انظر: العقد الفريد حـ٣/ ٢٣٦-٢٣٧.
(٢) انظر: العقد الفريد حـ٣ / ٢٣٦.
(٣) انظر: العقد الفريد حـ٣ / ٢٣٧.
(٤) انظر: صحيح مسلم كتاب الجنائز رقم / ٩٧٥.

كمـا نجد النبيَّ ﷺ لـمَّـا أمر بقـتلى بَدْر من المشـركين أن يطرحـوا فى القليب خاطبهم فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم مـا وعدكم ربكم حقّا؟ فـإنى وجدت ما وعدنى ربى حـقا فـقال له أصحـابه -رضوان الله عليـهم-: يا رسول الله أتكلم قـوما موتى؟ فقال لهم: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقّ». اهـ[١].

سادسا: البكاء والتفجّع:

ليس غريبا أن يتصدّع الفؤاد فى لحظات الموت؛ لأنه فراق لا رجعة بعده إلى الدنيا.

وكلما كانت الصلة قويّة بالميت، والعلاقة وطيدة، كلما كانت الصدمة أقسى وأهول.

ومن هذا المسـار عظم حزن الصـحابة -رضى الله عنهم- بوفـاة النبيِّ ﷺ حتى ارتجّت المدينة المنـورة بالبكاء، ودهش الناس لفقد ذلك الحـبيب الذى ملأ حـياتهم بالخيـر، وقادهم على دروب الهـداية، وغذّى عـقولهم وأرواحـهم بمعيـن الكتاب والسنّة، وليس غريبا أن يلجأ المرْء عند حلول المصيبة إلى البكاء.

وقد تحـدّث علماء النّفْس عن هذه الظاهرة، وأثرها فى نـزح معين الحـزن، مع ما يرتبط بذلك من التفكر فى أمر الدنيا والآخرة، والإنابة إلى الله -عزّ وجلّ-. اهـ.

سابعا: ذكر الفضائل:

وهو المعروف بالتـأبين؛ لأنه يعتمد على ذكـر فضائل الميت، ولكنه باستـعمال الأفـعال المـاضيـة ومـن ذلك ما فـعله علىّ بن أبى طالب -رضـى الله عنه- فى تأبين أبى بكر -رضى الله عنه-، فكان ممّا قال: صـدّقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس، وواسيـته حيـن بخلـوا، وقمتَ معـه حـين قعـدوا، سـمّاك الله فى كتابه صدِّيقا فقال -تعالى-: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر: ٣٣].

وكنت للإسلام حـصنا، وعلى الكافرين عذابا، لم تُغللّ حجّـتك، ولم تضعف بصـيـرتك، ولم تجـبن نفسك، كـنت كالجـبل لم تحـركـه العـواصف، ولاتزيله القـواصف، كنت كمـا قال رسـول الله ﷺ عنك: ضعـيفـا فى بدنك، قويّا فـى أمر الله، متواضعا فى نفسك، عظيما عند الله، قليلا فى الأرض، كثيرا عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحـد عندك هوادة، فالقوىّ عندك ضعـيف حتّى تأخذ الحقّ منه، والضعيف عندك قوىّ حتّى تأخذ الحقّ له.. اهـ[٢].

---

(١) انظر: سيرة النبى لابن هشام حـ٢ / ٢٨٠.

(٢) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٢٤٠، ونهاية الأرب جـ٥ / ١٦٩.

فالإمـام علىّ -رضى الله عنه- يستحضر صورة أبى بكر -رضى الله عنه-، ثم يوجّه إليه الحديث ممّا يشير إلى حضوره فى ذهنه.

وعلى هذه الشاكلة ما فعله عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- حينما وقف على قبر عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-، وقد فاتته الصلاة عليه فبكى، ثم قال: والله لئن فاتتنى الصلاة عليك فلا فاتنى حسن الثناء عليك أمَا والله إنك كنتَ سخيًا بالحقّ، بخيلا بالباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السُّخط، وما كنت غيّابا، ولا مدّاحا، فجزاك الله عن الإسلام خيرا.. اهـ[1].

ووقف علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- على قبر خبّاب بن الأرت -رضى الله عنه- فقال: رحم الله خبّابا، لقد أسلم راغبا، وجاهد طائعا، وعاش زاهدا، وابتلى فى جسمه فصبر، ولن يضيّع الله أجر من أحسن عملا.. اهـ[2].

ولمَّا توفى علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه-: قام ابنه الحسن -رضى الله عنه- فقال: أيها الناس: إنه قبض فيكم الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون، ولم يدركه الآخرون، قد كان رسول الله ﷺ يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، ولا ينثنى حتى يفتح الله له، ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أعدّها لخادم له.. اهـ[3].

-والله أعلم-

(١ : ٣) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٢٣٨.

الموضوع الحادى عشر

تعازى العصر الجاهلى

أولا: تعزية الإخوة:

قال المبرّد : مات أخ لبعض ملوك اليَمَن فعزاّه بعض العرب ، فقال فى تعزيته :
إنّ الخلق للخالق ، والشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، ولابدّ مما هو كائن ، ولاسبيل إلى رجوع ما قد فات ، وقد أقام معك ما سيذهب عنك ، أو ستتركه ، فما الجزع ممّا لابدّ منه؟ وما الطمع فيما لايُرْجَى؟ وما الحيلة فيما سيُنقل عنك ، أو تنتقل عنه؟ وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد أصله؟ وأحقّ الأشياء عند المصائب الصبر ، وأهل هذه الدنيا سفر لايحطّون الركّاب إلا فى غيرها ، فما أحسن الشكر عند النعم ، والتسليم عند الغِيَر ، فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع .

واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وإنما ابتلاك المنعم ، وأخذ منك المعطى ، فإن نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر .

وما أصغر المصيبة اليوم مع عظم المصيبة فى غد ، فاستقبل المصيبة بالحسنة تستخلف بها نعَما ، فإنما نحن فى الدنيا أغراض تُنتضل فيها المنايا ، لاتُنال نعمة إلاّ بفراق أخرى ، ولايستقبل مُعَمِّر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولاتحدث له زيادة فى أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزق .

ثانيا: تعزية أكثم بن صيفىّ لعمرو بن هند:

قال ابن عبد ربّه: عزّى أكثم بن صيفىّ عمرو بن هند ملك العرب فى أخيه فقال له :
أيها الملك إن أهل هذه الدار سَفْر لايحلّون عُقَد الرّحال إلاّ فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقدم معك ما سيظعن عنك ويدعك .

واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد عَدْل ، فجعك بنفسه ، وأبقى لك عليه حكمك ، واليوم غنيمة وصديق ، أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغدا لاتدرى من أهله ، وسيأتيك إن وجدك ، فما أحسن الشكر للمنعم ، والتسليم للقادر .

وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشرّ من الشرّ فاعله . . اهـ[١] .

-والله أعلم-

(١) انظر : العقد الفريد جـ٣ / ٣٠٧ ، ونهاية الأرب للنويرى جـ٥ / ١٦٥ .

الموضوع
الثانى عشر

تعازى عصر صدر الإسلام

أولا: تعزية الآباء:

عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال:

دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين[(١)] وكان ظئرا لإبراهيم -عليه السلام-، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله.

ثمّ دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنَفْسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف -رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولانقول إلاّ ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».. اهـ[(٢)].

ثانيا: تعزية النفس:

قالت «عائشة» أمّ المؤمنين -رضى الله عنها: كنّ أزواج النبىّ ﷺ عنده، لم تغادر منهنّ واحدة، فأقبلت «فاطمة» -رضى الله عنها- تمشى: ماتخطئ مشْيتها من مِشْية رسول الله ﷺ شيئا، فلما رآها النبىّ ﷺ رحّب بها، ثمّ أجلسها عن يمينه، ثم سارّها، فبكت بكاء شديدا، فلمّا رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت.

فقلت لها: خصّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسّرار، ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول لله ﷺ؟ فقالت: ما كنت أفشى على رسول الله ﷺ سرّه.

قالت - أى «عائشة» رضى الله عنها -: فلمّا توفّى رسول الله ﷺ قلت: عزمتُ عليكِ بمالى عليك من الحق لما حدّثتنى ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقالت: أمّا الآن فنعم: أمّا حين سارّنى فى المرّة الأولى فأخبرنى أن جيريل كان يعارضه القرآن فى كل سنة مرة، وأنه عارضه الآن مرّتين، وإنّى لأرى الأجل إلاّ قد اقترب، فاتقى الله واصبرى، فإنه نعم السّلف أنا لك. قالت: فبكيت بكائى الذى رأيتِ.

---

(١) أبو سيف القين: زوج أمّ سيف، ظئر إبراهيم ابن النبى ﷺ: أى: أبوه من الرضاعة، وكان أبو سيف قيْنًا: أى حدّادا انظر: صحيح مسلم كتاب الفضائل ورقم الحديث/ ٢٣١٥.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الجنائز، ورقم الحديث/ ١٢١٦.

فلما رأى جزعى سارّنى الثانية، فقال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين؟ قالت: فضحكت ضحكى الذى رأيت». . اهـ[١].

وقال ابن سعد فى الطبقات الكبرى: جاءت «عائشة أمّ المؤمنين» -رضى الله عنها- إلى أبى بكر -رضى الله عنه- وهو يعالج ما يعالج الميت ونَفَسه فى صدره، فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ∴ إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذاك يا أمّ المؤمنين، ولكن قولى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩]، ثم قال: إنى قد كنت نحلتك حائطا، وإن فى نفسى منه شيئا فردّيه إلى الميراث، قالت: نَعَم، فردّته.

ثم قال أبو بكر: أما أنا فمنذ أن ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا، ولا درهما، ولكنا قد أكلنا جَرِيش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم، وليس عندنا من فىء المسلمين قليل ولاكثير، إلاّ هذا العبد الحبشىّ، وهذا البعير الناضح، وجَرْد هذه القطيفة، فإذا متّ فابعثى بهنّ إلى عمر وابرئى منهنّ، ففعلت، فلما جاء الرسول عمر بكى، وقال: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، يا غلام ارفعهنّ. . اهـ[٢].

وقال ابن عبد ربّه: لما احتضر عمرو بن العاص -رضى الله عنه- جمع بنيه فقال لهم: يا بَنِيَّ لاتغنون عنى من أمرالله شيئا، فقالوا: يا أبانا إنه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا.

فقال: أسندونى، فأسندوه، ثم قال: اللهم إنك أمرتنى فلم أأتمر، وزجرتنى فلم أزدجر، اللهم لا قوىّ فأنتصر، ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧]. فلم يزل يكررها حتّى مات. . اهـ[٣].

ثالثا: تعزية الإخوة:

قال أبو العباس المبرّد: حدّثنى العباس بن الفرج الرّياشى عن محمد بن عبد الله الأنصارى قال: صلّى أبو بكر -رضى الله عنه- صلاة الصبح يوما، فلمّا انفتل قام متمّم بن نويرة فى آخر الناس، وكان رجلا أعور دميما، فاتكأ على قوسه، ثم قال:

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة الحديث رقم / ٢٤٥٠.
(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣ / ١٩٦. (٣) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٢٣٣.

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت ∴ خلف البيوت قُتلتَ يا ابن الأزْور
أدعوته بالله ثم غدرته ∴ لو هو دعاكَ بذمّة لم يَغْدُر

وأومأ إلى أبي بكر -رضي الله عنه-، فقال أبو بكر: والله ما دعوته، ولاغدرتُ به.

فقام إليه عمر -رضي الله عنه- فقال: لوددتُ أنك رثيت أخي بما رثيتَ به أخاك.

فقال له: يا أبا حفص: لو أعلم أن أخي صار حيث أخوك ما ريثته، فهو يقول: إنّ أخاك قُتل شهيدا.

فقال عمر: ما عزّاني أحد بمثل تعزيتك. اهـ(١).

-والله أعلم-

(١) انظر: التعازي والمراثي ص ٢٠-٢١، والكامل لابن الأثير جـ٣ / ١٤٤٦-١٤٤٨.

الموضوع
الثالث عشر

تعازى العصر الأموى

أولا: التعزية لطلب الأجر والمثوبة:

قال أبو العباس المبرّد: ذكر الحِرْمازِىّ أنّ الأحنف بن قيس لما مات وكان موته بالكوفة، مشى مُصْعب بن الزبير فى جنازته، ثمّ قال: اليوم مات سيّد العرب.

فلما دُفِن قامت امرأة على قبره -أحْسِبها من [بنى مِنقر]-، فقالت: نسأل الله الذى فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الخير دليلك، وأن يوسّع لك فى قبرك، ويغفرلك يوم حشرك، فوالله لقد كنت فى المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا، ولقد كنت فى الحىّ مسوَّدا، وإلى الخليفة موفدا، ولقد كانوا لقولك مستمعين، ولرأيك متّبعين. . اهـ[١].

ثانيا: تعزية الخلفاء:

قال عبد الله بن همّام السلولى ليزيد بن معاوية فى موت ولده: يا أمير المؤمنين: آجرك الله على الرَّزية، وبارك لك فى العطيّة، وأعانك على الرعيّة، فقد رُزئتَ عظيما، وأعطيت جسيما، فاشكر الله على ما أعطيتَ، واصبر على ما رزئت، فقد فقدت خليفة الله، ومُنحتَ خلافة الله، ففارقت جليلا، ووهبتَ جزيلا، إذْ قضى معاوية نحبه، غفر الله ذنبه، ووليّتَ الرياسة، فأعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرود، ووفقك لصالح الأمور. . اهـ[٢].

وعزّى محمد بن الوليد بن عتبة الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين ليشْغلك من أقبل من الموت إليك، عمّن هو فى شغل ممّا دخل عليك، وأعدد لنزوله عُدّة تكون لك حجابا من الجزع، وسترا من النار.

فقال: يا محمد أرجو ألاّ تكون رأيت غفلة تُنبِّه عليها، وما توفيقى إلاّ بالله.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين إنه لو استغنى أحد عن موعظة بفضل لكنتَه. . اهـ[٣].

---

(١) انظر: الكامل فى التاريخ جـ٣ / ١٤٥٧.
(٢) انظر: زهر الآداب وثمر الألباب جـ٤ / ٩١.
(٣) انظر: عيون الأخبار جـ٣ / ٥٨.

ثالثا: يتبع تعزية الخلفاء:

قال ابن عبد ربّه: قال بعض الحكماء لسليمان بن عبد الملك لمَّا أصيب بابنه أيوب: يا أمير المؤمنين إن مثلك لا يوعظ إلاّ بدون علمه، فإن رأيتَ أن تقدّم ما أخّرت العجزة من حسن العزاء، والصبر على المصيبة، فترضى ربك، وتريح بدنك فافعل..[١].

وقال ابن عبد ربّه: توفيت أخت لـ عمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزّاه، فلم يردّ عليه شيئا، ثم دنا إليه آخر فعزّاه، فلم يردّ عليه شيئا، فلما رأى الناس ذلك أمسكوا عنه، ومشوا معه، فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه، وقال: أدركت الناس، وهم لا يعزّون في امرأة إلاّ أن تكون أمّا، انقلبوا رحمكم الله.. اهـ[٢].

رابعا: تعزية من أجل البكاء والتفجّع:

قال أبو العباس المبرّد: قال أبو الحسن المدائني: لمَّا حضرت أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة، وكان وليّ عهد أبيه، دخل عليه أبوه، وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز، وسعيد بن عقبة، ورجاء بن حيوة: فجعل ينظر في وجهه وهو يجود بنفسه، فخنقته العبرة فردّها، ثم نظر إلينا، فقال: إنه والله ما يملك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجدُ عند المصيبة، والناس عند ذلك مختلفون: فمنهم من يغلب صبرُه جزعه، فذلك الجلد الحازم المحتسب، ومنهم من يغلب جزَعُه صبره، فذلك المغلوب الضعيف، وليست منكم حشْمة، وإني أجد في قلبي لوعة، إن لم أبرِّدها بعبرة خشيت أن تنصدع كبدي كمدا، وأسفا.

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين الصبر أولى بك فلا تُحْبطنّ أجرك.

قال سعيد بن عقبة: فنظر إليّ، وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيث.

أمّا رجاء فقال: يا أمير المؤمنين افعل، فإني لا أرى بأسا ما لم تأت الأمر المفرط، فقد بلغني أن رسول الله ﷺ: لمَّا مات ابنه إبراهيم اشتدّ وجده عليه، فدمعت عيناه، فقال: **«تدمع العين، ويوجع القلب، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**.

فقال عمر: يا رجاء: هذا ما صنعت بأمير المؤمنين.

فقال: دعه يا أبا حفص يقض من بكائه وطرا؛ فإنه لو لم يخرج ما في صدره ما ترى لخفت أن يأتي عليه، ثم رقأت عبرته، فدعا بماء فغسل وجهه، فأقبل علينا، وقد قضى الفتى، فأمر بجهازه، وخرج يمشي أمام جنازته، فلمّا دُفِن، وحثي عليه التراب وقف قليلا ينظر إلى قبره، ثم قال:

(١) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٣١١.
(٢) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٣١٠.

وقفتُ على قبر مقيم بقفرة ∴ متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال له عمر: يا أمير المؤمنين الصبر؛ فإنه أقرب إلى الله وسيلة، وليس الجزع يحيي من مات، وبالله العصمة والتوفيق.. اهـ[١].

خامسا: تعزية النفس:

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك، وقد اشتدّ به الألم: كيف تجدك يا بُنيّ؟

قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك منّي.

قال: والله يا بُنيّ لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك.

فقال: وأنا والله لأن يكون ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكون ما أحبّ.. اهـ[٢].

وقال ابن عبد البرّ: لمّا نزل بهشام بن عبد الملك الموتُ نظرَ إلى أولاده يبكون حوله، فقال لهم: جاد لكم والدكم بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم ما جمع، وتركتم عليه ما اكتسب، ما أعظم منقلبه إن لم يغفر الله له.. اهـ[٣].

سادسا: تعزية الآباء:

قال المبرّد: قال عمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك: الحمد لله الذى جعل الموت حتْما واجبا على خلقه، ثم سوّى فيه بينهم، فقال: ﴿كُلُّ نَفسٍ ذَائِقَةُ المَوت﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فليعلم ذوو النهى أنهم صائرون إلى قبورهم، مفردون بأعمالهم، واعلموا أن عند الله مسألة فاحصة؛ فقال -عزّ وجلّ-:

﴿فوربِّك لنسألنَّهم أجمعين ﴿٩٢﴾ عمَّا كانُوا يعملُونَ ﴿٩٣﴾﴾. اهـ[٤] [الحجر: ٩٢-٩٣].

سابعا: تعزية الخلفاء:

قال ابن عبد ربّه:

لمّا احتضر عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- استأذن عليه مسلمة بن عبد الملك فأذن له، وأمره أن يخفّف الوقفة، فلما دخل عند رأسه قال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيرا، فلقد ألنت لنا قلوبا كانت علينا قاسية، وجعلت لنا فى الصالحين ذكرا.. اهـ[٥].

-والله أعلم-

---

(١) انظر: وفيات الأعيان جـ٢ / ٣٠٣، والتعازى والمراثى ص ١٤٤-١٤٦، والكامل فى التاريخ جـ٣/ ١٤١٧، ووفيات الأعيان جـ٢ / ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) انظر: نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ١٦٦.

(٣) انظر: بهجة المجالس جـ٣ / ٣٧١.

(٤) انظر: التعازى والمراثى ص ٤٦-٤٧.

(٥) انظر: العقد الفريد جـ٣ / ٣٩٧.

الموضوع
الرابع عشـــر

تعازى العصر العبّاسى

أولا : تعزية الآباء:

قال الجاحظ : مات ذرّبن أبى ذرّ الهمدانـىّ ، فوقف أبوه على قبره ، فقال : يا ذرّ ، والله ما بنا إليك من فاقة ، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة . ياذرّ شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك ، ثم قـال : اللهم إنك وعدتنى بالصـبر على ذرّ رحمـتك ، اللهمّ قد وهبتُ ما جعلت لى من أجر على ذرّ لذرّ ، فلا تعرّفـه قبيحا من عمله . اللهمّ قد وهبتُ له إساءته إلىّ فهبْ لى إساءته إلى نفسه ، فـإنك أجود وأكرم ، فلمّا انصرف عنه التفت إلى قبره وقال : يا ذرّ قد انصرفنا وتركناك ، ولو أقمنا ما نفعناك . . اهـ[١] .

ثانيا: تعزية الخلفاء:

قال ابن عبد ربّه : عزّى شبيب بن شيبة المنصور فى أخيه أبى العباس فقال : جعل الله ثواب ما رُزئتَ به لك أجـرا ، وأعقبك عليـه صبرا ، وخـتم لك ذلك بعافيـة تامّة ، ونعمـة عامّـة ، فثواب الله خير لك منه ، ومـا عند الله خير له منك ، وأحقّ ما صُبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل . . اهـ[٢] .

وقال ابن عبد ربّه:

لـمَّا مـات المنصور أميـر المؤمنين : قدمت وفـود الأنصار على أميـر المؤمنين المهدى ، وقـدم فيهم أبو العيناء المـحدِّث ، فتقدّم إلى الـتعزية ، فقال : آجـر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلّفه له ، فلا مصيبة أعظم من مصيبة إمام والد ، ولاعقـبى أفضل من خلافة الله على أوليائه ، فاقبل من الله أفضل العطية ، واصبر له على الرزيّة . . اهـ[٣] .

ثالثا: تعزية لذكر الفضائل:

قال ابن قتيبة:

قال ابن السمّاك يوم مات داود الطائىّ : إنّ داود -رحـمه الله- نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته فأعشى بصرُ القلب بصـرَ العين ، فكان كأنه لاينظر إلى ما إليه تنظرون ،

(١) انظر : البيان والتبيين جـ٣ / ١٤٥ .
(٢) انظر : العقد الفريد جـ٣ / ٣٠٨ .
(٣) انظر : العقد الفريد جـ٣ / ٣٠٨ .

وكأنكم لاتنظرون إلى ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يعجب ، فلما رآكم راغبين مـذهولين ، مغرورين ، قد أذهلت الدنيـا عقولكم ، وأماتت بحـبّها قلوبكم ، استوحش منكم ، فكنتُ إذا نظرتُ إليه نظرتُ إلى حيّ وسط أموات . ياداود ما أعجب شأنك بين أهل زمانك ، أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، أخشنت المطعم وإنما تريد طيّبـه ، وأخشنت الملبس وإنما تريد ليّنه ، ثم أمتّ نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتـها ولـمّا تعذب ، وأغنيتها عن الدنيا لكيلا تُذكـر ، رغبتْ نفـسك عن الدنيا فلم ترها لك قَـدْرا إلى الآخرة ، فـما أظنـك إلا وقد ظفرت بما طلبت ، كان سيماك في سرّك ، ولم تـكن سيماك في علانيتك ، تفقّهت في دينك ، وتركت الناس يُغنّون ، وسمـعت الحديث وتركتهم يتـحدّثون ، وخرست عن القـول وتركتـهم يتكلمون ، ولاتحـسد الأخـيار ، ولاتعـيب الأشرار ، ولاتقـبل من السلطان عطيّة ، ولا من الإخوان هديّة ، آنس ما تكون إذا كنت بالله خاليا .

فمن سـمع بمثلك وصبـر صبرك ، لا أحسـبك إلاّ وقد أتعبتَ العـابدين بعدك ، سجنت نفسك بيتك : فلا محـدّث لك ، ولاجليس معك ، ولافراش تحتك ، ولاستر على بابك ، ولاقُلّة يبرد فيها ماؤك ، ولاصَحْفة يكون فيها غذاؤك .

ياداود ما كنت تشتهي من الماء بارده ، ولا من الطعام طيّبه ، ولا من اللباس ليّنه .

ولكن زهدت فيه لما بين يديك ، فما أصغـر ما بذلتَ ، وما أحقر ما تركت ، فلمّا متّ غفر الله لك بموتك . . اهـ(١) .

رابعا: تعزية الأبناء:

قال ابن عبد ربّه:

وقفت أعرابية على قبر أبيها ، فقالت : يا أبت إنّ في الله -تبارك وتعالى- من فقدك عوضا ، وفي رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة ، ثم قالت : اللهم نزل بك عبدك مقفرا من الزّاد ، غنيّا عمّا في أيدي العباد ، فقـيرا إلى ما في يدك ياجواد ، أنت يا ربِّ خير من نزل به المؤمِّلون ، واسـتغنى بفضله المقلّون ، وولج في سـعة رحمته الـمذنبون ، ثم انصرفت . . اهـ(٢) .

-والله أعلم-

---

(١) انظر : عيون الأخبار جـ٢ / ٣١٥-٣١٦ .

(٢) انظر : العقد الفريد جـ٣ / ٢٤٢ .

الموضوع
الخامس عشر

مواعــظ متنوعــة

أولا: موعظة الربيع بن زياد لعمر بن الخطاب -رضى الله عنهما:

عن عبدالله بن بريدة: أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- جمع الناس لقدوم الوفد، فقال لابن الأرقم: انظر أصحاب نبينا محمد ﷺ، فأذن لهم أوّل الناس، ثم القرن الذين يلونهم، فدخلوا فصفّوا أمامه، فنظر فإذا رجل ضخم عليه مقطعة برود، فأومأ إليه عمر، فأتاه، فقال عمر: إيه: -ثلاث مرات-، فقال الرجل: إيه: ثلاث مرّات، فقال عمر: أفّ، ثم قام فنظر فإذا الأشعرىّ: رجل أبيض، ضعيف الجسم، قصير، ضعيف اللسان، فأومأ إليه، فأتاه، فقال عمر إيه، فقال الأشعرىّ: ياأمير المؤمنين افتح حديثا فنحدثك، فقال عمر: أفّ، فإنه لن ينفعك راعى ضأن، فنظر فإذا رجل أبيض خفيف الجسم، فأومأ إليه فأتاه، فقال له عمر: إيه، فوثب فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ بالله، ثم قال: إنك وليت أمر هذه الأمّة فاتق الله فيما وليت من أمر هذه الأمّة، وأهل رعيتك فى نفسك خاصة، فإنك محاسب ومسئول.

وإنما أنت أمين، وعليك أن تؤدى ما عليك من الأمانة؛ فتعطى أجرك على قدر عملك.

فقال عمر: ما صدَقنى رجل منذ استخلفت غيرك، من أنت؟ قال: أنا الربيع بن زياد.

فقال: أخو المهاجر بن زياد؟ قال: نعم.

فجهز عمر جيشا، واستعمل الأشعرىّ، ثم قال: انظر الربيع بن زياد فإن يك صادقا فيما قال فإن عنده عونا على هذا الأمر فاستعمله، ثم لا يأتين عليك عشرة إلا تعاهدت منه عمله، وكتبت إلىّ سيرته فى عمله حتى كأنى أنا الذى استعمله، ثم قال: عهد إلينا النبى ﷺ فقال: **«إن أخوف ما أخشى عليكم بعدى منافق عليم اللسان»**. اهـ[1].

ثانيا: موعظة زياد بن حنظلة التميمى -رضى الله عنه- لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه:

قال أبو الفضل سبط ابن الجوزىّ (ت ٦٥٤هـ): قام زياد بن حنظلة التميمى، فقال: يا أمير المؤمنين احذر مَنْ إن أكرمته أهانك، وإن أهنته أكرمك. فقال عمر: من هذا؟ قال: جسدك إن أنت تابعت بين بطنك، وفرجك فيما يريدان منك، فضحاك، وأهاناك فى الدنيا والآخرة، وإن أهنتهما وعصيتهما، وقويت عليهما زاناك فى الدنيا والآخرة.. اهـ[2].

---

(١) انظر: كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال: جـ١٣: ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) انظر: الجلس الصالح والأنيس الناصح، ص٢١٩.

ثالثا: موعظة سعيد بن عامر -رضى الله عنه- لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

قال سعيد بن عامر لـعمر: إنى موصيك بكلمات من جوامع الإسلام، ومعالمه، قال: أجل. فإن الله قد جعل عندك إربا.

قال: اخش الله فى الناس، ولا تخش الناس فى الله، ولا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدّقه الفعل، ولا تقض فى أمر واحد بقضائين؛ فيختلف عليك أمرك، وأحبّ لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك، وخض الغمرات إلى الحق، ولا تخف فى الله لومة لائم .. اهـ[1].

رابعا: موعظة علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه:

قال علىّ لـعمر: إن أردت أن تلحق صاحبيك فأقصر الأمل، وكل دون الشبع، وارقع القميص، واخصف النعل.. اهـ[2].

خامسا: موعظة خولة بنت حكيم -رضى الله عنها- لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

خرج عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يوما إلى السوق، ومعه الجارود فإذا امرأة عجوز، فسلم عليها عمر فردّت عليه السلام، ثم قالت: هيه يا عمر، عهدتك والله تسمّى عميرا، ثمّ سميت أمير المؤمنين، فاتق الله فى الرعية، واعلم أن من خاف الموت خشى الفوت، فبكى عمر، فقال الجارود: لقد اجترأت على أمير المؤمنين، وأبكيته، فأشار عمر: أن دعها، ثم قال له: أما تعرف هذه؟ قال: لا، قال: هذه خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها، فعمر أحرى أن يسمع كلامها.. اهـ[3].

سادسا: موعظة امرأة لزياد بن أبى سفيان:

قال أبو الفضل سبط ابن الجوزى: دخلت امرأة على زياد بن أبى سفيان فقالت: يا زياد، فقال لها: مَهْ يا أمة الله، أما ترين الناس يقولون: أيها الأمير.

فقالت: قد دعوتك باسم إذا عُزِلتَ بقى معك، فتعجّب منها، ثم قال: ما حاجتك؟

قالت: حُلَّ عن ولدى؛ فإنه واحد أمّه، وكاسب عياله، وهو يقرى الضيف، ويدفع عن الجار.

فقال لها: لا يجوز لى؛ فإنه قتل النفس، وآثم لو أخليته، وأولياء الدّم يطالبون به.

فجمعت حصى فى كفّها، ثم قالت: يا زياد ذنبك أكثر، أو التزام هذا الحصا؟

(١) انظر: الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص٢١٩.

(٢) انظر: كنز العمال جـ٨/ ٢١٩. (٣) انظر: الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء ص٩٧.

فقال: بل ذنبى.

فأخذت حصاة واحدة فضمّتها فيما بينها، وقالت: ضمّ هذا إلى سائر ذنوبك.

فأطلق ولدها، وأرضى أصحاب المقتول.. اهـ[(١)].

سابعا: موعظة أعرابى لسليمان بن عبدالملك:

قال أبو عبدالله الحميدى: دخل أعرابى على سليمان بن عبدالملك، فقال له: يا أمير المؤمنين إنّى مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته، فإن من ورائه ما تحبّ وإن كرهتَ أوّله.

فقال سليمان: إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصيحته، ولا نأمن غشه، وأنت الناصح.

فقال: يا أمير المؤمنين أما إذا أمنتُ بادرة غضبك، فإنى أقول تأدية لحقّ الله، وحقّ رعيتك: يا أمير المؤمنين إنه قد تكنّفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك فى الله، ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب الآخرة سِلْم الدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لا يألون الأمانة تضييعا، والأمّة عَسفا، وأنت مسئول عما اجترحوا، وليسوا مسئولين عما اجترحتَ، ولا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس جرما من باع آخرته بدنيا غيره.. اهـ[(٢)].

ثامنا: موعظة محمد بن كعب القرظى لعمر بن عبدالعزيز -رحمه الله تعالى:

دخل محمد بن كعب القرظىّ على عمر بن عبدالعزيز، وهو يمسح عينيه من الدموع، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ضرّهم، ومنها خرجوا بما نفعهم، وكم من قوم غرّهم منها الذى أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا منها ملومين، لم يأخذوا منها لما أحبّوا من الآخرة عدّة، ولا لما كرهوا جنّة، وأقسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فنحن محقوقون.

---

(١) انظر: الجليس الصالح والأنيس الناصح ص ٢٣٦.

(٢) انظر: الذهب المسبوك ص١٧٤.

يا أمير المؤمنين : إنا ننظر إلى تلك الأعمال التى تغبطهم بها ، فتخلفهم فيها ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ، واجعل فى قلبك سبيل اثنتين : انظر الذى تحبّ أن يكون معك إذا قدمتَ على ربك -عزّ وجلّ- فابتغ به البدل حيث لا يؤخذ البدل ، ولا تذهبنّ إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تجوز عنك ، فاتق الله يا أمير المؤمنين وافتح الأبواب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وردّ الظالم ، ثلاث من كنّ فيه استكمل الإيمان بالله -عزّ وجلّ- : من إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . . اهـ[١] .

-والله أعلم-

(١) انظر : سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

الموضوع
السادس عشر

مواعظ العصر العباسى

أولا : موعظة الأوزاعى لأبى العباس عبدالله بن محمد السفاح (ت ١٣٦هـ):

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى- : لـمَّا دخل عبدالله بن على عمّ السفّاح الذى أجلى بنى أمية عن الشام، وأزال الله -سبحانه وتعالى- دولتهم على يده، فطلب الأوزاعى، فتغيّب عنه ثلاثة أيام، ثم حضر بين يديه.

قال الأوزاعىّ: دخلت عليه وهو على سرير وفى يده خيزرانة، والمسودة عن يمينه وشماله[1] معهم السيوف مصلطة، والعمد الحديد، فسلمت عليه فلم يردّ، ونكت بتلك الخيزرانة التى فى يده، ثم قال: يا أوزاعى ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ : أجهاد ورباط هو؟.

فقلت: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصارىّ[2].

يقول: قال محمد بن إبراهيم التميمى: سمعت علقمة بن وقّاص يقول:

سمعت عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»** اهـ[3].

قال: فنكت بالخيزرانة أشدّ مما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم.

ثم قال: يا أوزاعىّ ما تقول فى دماء بنى أمية؟

فقلت: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة»** اهـ[4].

فنكت بها أشدّ من ذلك، ثم قال: ما تقول فى أموالهم؟

---

(١) المسوّدة: هم جيوش العباسيين؛ لأنهم كانوا يلبسون السّواد.

(٢) وهو: فقيه ومحدّث، ولى القضاء بالمدينة المنورة فى زمن (بنى أمية) ت ١٤٣هـ.

(٣) انظر: صحيح البخارى كتاب الإيمان، رقم/١.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه رقم/١٦٧٦.

فقلت: إن كانت فى أيديهم حراما فهى حرام عليك أيضا، وإن كانت لهم حلالا فلا تحلّ لك إلا بطريق شرعى، فنكت أشدّ مما كان ينكت قبل ذلك، ثم قال: ألا أوليك القضاء؟

فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقّون علىّ فى ذلك، وإنى أحبّ أن يتم ما ابتدأونى به من الإحسان، فقال: كأنك تحبّ الانصراف.

فقلت: ورائى حرم وهم محتاجون إلى القيام عليهنّ وسترهنّ، وقلوبهنّ مشغولة بسببى.

فأمرنى بالانصراف، فلما خرجتُ إذا برسوله ورائى، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير: استنفق هذه، قال: فتصدّقت بها.. اهـ[1].

ثانيا: موعظة صالح بن عبدالجليل للمهدى:

دخل صالح بن عبدالجليل، وكان ناسكا مفوّها، على المهدى، فسأله أن يأذن له فى الكلام، فقال: تكلم.

فقال: يا أمير المؤمنين إنه لمَّا سهل علينا ما توعر على غيرنا، قمنا مقام الأداء عنهم، وعن رسول الله ﷺ، بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عند انقطاع عُذر الكتمان، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص ليُتمّ مؤدّينا على موعد الأداء، وقابلنا على موعد القبول، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من حجب الله عنه العلم عذّبه على الجهل، وأشدّ منه عذابا من أقبل إليه العلم وأدبر عنه، ومن أهدى الله إليه علما فلم يعمل به، فقد رغب عن هديّة الله وقصّر بها، فاقبل ما أهدى إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل، لا قبول سمعة ورياء.. اهـ[2].

ثالثا: موعظة عبدالله بن عبدالعزيز العمرى لهارون الرشيد -رحمه الله:

قال ابن كثير – رحمه الله –: وعظ عبدالله بن عبدالعزيز العمرى هارونَ الرشيد يوما، فأطنب، وأطيب، وقال له وهو واقف على الصفا: انظر كم حول الكعبة من الناس؟

فقال: كثير. فقال: كل منهم يُسأل يوم القيامة عن خاصّة نفسه، وأنت تُسأل عنهم كلهم.

فبكى الرشيد بكاء كثيرا، ثم قال له: يا هارون إن الرجل ليُسرف فى ماله فيستحقّ الحجر عليه، فكيف بمن يسرف فى أموال المسلمين كلهم؟ ثم تركهم، وانصرف الرشيد يبكى.. اهـ[3].

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/ ١٢٠-١٢١.

(٢) انظر: عيون الأخبار جـ٢/ ٣٣٣، والعقد الفريد جـ٣/ ١٥٨-١٥٩.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/ ١٩٢.

رابعا: موعظة الفضيل بن عياض لهارون الرشيد -رحمه الله:

لـمَّا دخل الفضيل بن عياض على هارون الرشيد قال: أيكم هارون الرشيد؟

فأشـاروا إلى أميـر المؤمنين، فـقال: أنت هو يا حـسن الوجه، لقـد ولّيتَ أمرا عظيما، إنّى مـا رأيت أحدا هو أحسن وجها منك، فإن قـدرت أن لا تسوٌد هذا الوجه بلفحة من النار فافعل، فقال: عظـنى، فقال له: ماذا أعظك؟ هذا كتاب الله - تعالى- بين الدّفتين، انظر ماذا عُمِل بمن أطاعه، وماذا عُمِل بمن عصاه؟

وقال: إنى رأيت الناس يغوصون على النار غوصا شديدا، ويطلبونها طلبا حثيثا.

أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها، أو أيسر لنالوها.

فقال: أعـد إلىّ، فقال: لو لم تبـعث إلىّ لم آتك، وإن انتفعتَ بما سـمعتَ منّى عدتُ إليك.. اهـ[1].

-والله أعلم-

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ٨/ ١٠٥.

الموضوع
السابع عشر

خطب النبىّ ﷺ

وقد ضمنته الخطب الآتية:

أولا: خطبة النبىّ ﷺ لما نزل عليه قول الله -تعالى-: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء:٢١٤].

عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: لـمّا نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبىّ ﷺ على الصفا، فجعل ينادى: «يا بنى فهر، يا بنى عدىّ»، لبطون قريش، حتى إذا اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو، فجاء أبو لهب -لعنه الله.

فقال النبىّ ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقى».

قالوا: نعم. ما جرّبنا عليك إلا الصدق. قال: «فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد»، فقال أبو لهب -لعنه الله: تبّا لك ألهذا جمعتنا؟.

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد:١-٢]. اهـ(١)

ثانيا: أوّل خطبة خطبها النبى ﷺ بالمدينة المنورة:

فبعد أن حمد الله - تعالى -، وأثنى عليه بما هو أهله قال: **«أمّا بعد: أيها الناس فقدّموا لأنفسكم، تعلمنّ والله ليُصعقنّ أحدكم، ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنّ له ربّه وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك فما قدّمتَ لنفسك؟ فلينظرنّ يمينا، وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرنّ قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقّ تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنّ بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»** اهـ(٢).

ثالثا: أوّل خطبة جمعة خطبها النبىُّ ﷺ فى المدينة المنورة:

قال أبو جعفر الطبرىّ: أول خطبة جمعة خطبها النبىّ ﷺ بالمدينة المنورة: فى بنى سالم بن عمرو بن عوف -رضى الله عنه-:

---

(١) انظر: صحيح البخارى الحديث رقم ٢٦٣، وصحيح مسلم الحديث رقم ٢٠٨، وسنن الترمذى الحديث رقم ٣٣٦٣.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام جـ١/ ٣٠٠.

«الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، ودين الحقّ، والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودُنوّ من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، وفرّط وضلّ ضلالا بعيدا، وأوصيكم بتقوى الله؛ فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، فمن يُصْلح الذى بينه وبين الله من أمر السرّ والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم.

وما كان من سوى ذلك يودّ لو أنّ بينه وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذى صدق قوله، وأنجز وعده لا خُلْف لذلك؛ فإنه يقول: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩].

واتقوا الله فى عاجل أمركم، وآجله فى السرّ، والعلانية، فإنه ﴿ مَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧١].

وإنّ تقوى الله توقّى مقته، وتوقّى عقوبته، وتوقّى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضى الربّ، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرّطوا فى جنب الله فقد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى الله حقّ جهاده هو اجتباكم، وسمّاكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حىّ عن بينة ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم» اهـ[1].

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى جـ٢/ ٣٩٤.

رابعا: خطبة للنبىّ ﷺ:

قال -عليه الصلاة والسلام- : «إنّ الحمد لله، أحمده وأستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إنّ أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زيّنه الله فى قلبه، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدق الحديث وأبلغه، أحبّوا من أحبّ الله وأحبّوا الله من كلّ قلوبكم، ولا تملّوا كلام الله وذكره، ولا تقسوا عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، اتقوا الله حق تقاته، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم، وتحابّوا بروح الله بينكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ[1].

خامسا: خطبة للنبىّ ﷺ فى الحث على الجهاد:

وقف النبىّ ﷺ فى الناس يوم أحد خطيبا، فقال: «أيها الناس: أوصيكم بما أوصانى الله فى كتابه من العمل بطاعته، والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجْر، وذخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطّن نفسه على الصبر، واليقين، والجدّ، والنشاط، فإن جهاد العدوّ شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من له عزم على رشده، إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلكم ما وعدكم الله، وعليكم بالذى أمركم به، فإنى حريص على رشدكم، إن الاختلاف، والتنازع، والتثبيط من أمر العجز، والضعف مما لا يحبّ الله، ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر.

أيها الناس: جُدِّد فى صدرى أن من كان على حرام فرّق الله بينه وبينه، ومن رغب عنه غفر الله ذنبه، ومن صلّى علىّ صلاة صلى الله عليه وملائكته عشرا، ومن أحسن من مسلم، أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه، أو آجل آخرته.

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه بالجمعة يوم الجمعة إلا صبيًا، أو امرأة، أو مريضا، أو عبدا مملوكا، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنىّ حميد، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث فى روعى الروح الأمين: أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها، لا ينقص منه شىء، وإن أبطأ عنها.

(١) انظر: دلائل النبوّة للبيهقى جـ٢/ ٥٢٤، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣/ ٢١٣.

فاتقوا الله ربكم وأجملوا فى طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يُقدر على ما عنده إلا بطاعته، وقد بيَّن لكم الحلال والحرام غير أن بينهما شُبهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم، فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإنّ حمى الله محارمه.

والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد، والسلام عليكم» اهـ(١).

سادسا: خطبة للنبيّ ﷺ:

خطب النبيُّ ﷺ الجمعة، فقال: «أيها الناس: توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وصلُوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة فى السرّ والعلانية، تُرْزقوا، وتُؤجروا، وتُنصروا.

واعلموا أن الله -عزّ وجلّ- قد افترض عليكم الجمعة فى مقامي هذا، فى عامى هذا، فى شهرى هذا، إلى يوم القيامة، فى حياتى، ومن بعد موتى، فمن تركها وله إمام فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له فى أمره، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا برّ له.

ألاَ ولا يؤمّ أعرابى مهاجرا، ألاَ ولا يؤم فاجرٌ مؤمنا، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه، أو سوطه» اهـ(٢).

سابعا: خطبة للنبيّ ﷺ فى زواج ابنته «فاطمة» -رضى الله عنها-:

خطب النبى ﷺ أثناء عقد زواج ابنته «فاطمة» -رضى الله عنها-، على علىّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- فقال: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المرهوب من عذابِه، المرغوب فيما عنده، النافذ أمره فى سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بدينه، وأكرمهم بنبيّه «محمد» ﷺ.

ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نَسَبا لاحقا، وأمرا مفترضا، وشَجَّ به الأرحام، وألزمه الأنام، قال -تبارك اسمه وتعالى ذكره-:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ [الفرقان: ٥٤]

(١) انظر: كتاب المغازى جـ١/ ٢٢١-٢٢٢، وجمهرة خطب العرب جـ١/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) انظر: سنن ابن ماجه باب فرض الجمعة: جـ١/ ٣٤٣ رقم/ ١٠٨١.

فأمر الله يجرى إلى قضائه، ولكل قضاء قدر، ولكل قَدَر أجل:

﴿ يَمحُو اللَّهُ ما يَشاءُ ويُثبتُ وعندهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد: ٣٩].

ثم إن ربى أمرنى أن أزوّج «فاطمة» من علىّ بن أبى طالب، وقد زوّجتها إيّاه، على أربعمائة مثقال فضة» اهـ[١].

ثامنا: خطبة للنبى ﷺ يوم فتح مكة:

وقف الهادى البشير ﷺ يوم فتح مكة على باب الكعبة، ثم قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألاَ كل مأثرة[٢]، أو دم، أو مال يُدَّعى فهو تحت قدمىّ هاتين، إلا سدنة البيت، وسقاية الحاجّ، ألاَ وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط، والعصا فيهما الدّية مغلّظة، منها أربعون خَلَفة[٣]، فى بطونها أولادها.

يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكمَ نخْوة الجاهلية، وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، ثم تلا:

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقناكُم مِن ذَكرٍ وأُنثىٰ وجَعلناكُم شُعُوباً وقَبائلَ لتعارفُوا إنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقاكُم إنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

يا معشر قريش -أو يا أهل مكة- ما ترون أنّى فاعل بكم؟» قالوا: خيرا أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» اهـ[٤].

تاسعا: خطبة الرسول ﷺ فى حجّة الوداع:

خطب الهادى البشير ﷺ خطبة عظيمة جامعة شاملة قال فيها:

«الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن «محمدا» عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذى هو خير، أمّا بعد: أيها الناس اسمعوا منّى أبيّن لكم، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقعى هذا.

---

(١) انظر: جمهرة خطب العرب جـ٣/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) المأثرة: المكرمة. (٣) الخلفة: الحامل من النياق.

(٤) انظر: تاريخ الطبرى جـ٣/ ٦٠-٦١، والكامل لابن الأثير جـ٢/ ١٢١، وسيرة ابن هشام جـ٢/ ٢٧٣.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا هل بلّغت؟

اللهم أشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ ربا الجاهلية موضوع، وإن أوّل ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أوّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة، والسقاية، والعَمْد قَوْد، وشبه العمد ما قُتل بالعصا، والحجر فيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه. ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧].

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦].

ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب: الذي بين جمادى، وشعبان، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهنّ حقّا: لكم عليهنّ ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدْخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ، وتهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئا، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيرا، ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد.

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيهـا الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحـد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكـرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربىّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها النـاس: إن الله قد قسم لكل وارث نصـيبـه من الميـراث. ولا يجوز لوارث وصية، ولا تـجوز وصيّة فى أكثـر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحـجر، من ادّعـى إلى غير أبيـه، أو تولّى غير مواليـه فعليـه لعنة الله والملائكة والـناس أجمعين، لا يُقبل منه صَرْف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ[1].

عاشرا: خطبة النبىّ ﷺ فى مرضه الذى مات فيه:

عن الفضل بن عباس -رضى الله عنهمـا- قال: جاءنى رسول الله ﷺ، فخرجت إليه، فوجدته موعوكا قد عصب رأسه، فـقال: خذ بيدى يا فضل، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد فى الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: «أمّا بعد أيها الناس: فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، وإنه قد دنا منّى حـقوق ما بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهـرا فهذا ظهـرى فليستَـقدْ منّى، ومن كنت شتـمت له عِرْضا فـهذا عِرْضى فليستَقدْ منه.

ألا وإنّ الشَـحناء ليست من طبـعى، ولا من شـأنى، ألا وإنّ أحبكم إلىّ من أخـذ منّى حقا إن كان له، أوْصَلنى من لقيتُ الله وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغن عنّى حتى أقوم فيكم مرارا» اهـ[2].

-والله أعلم-

---

(١) انظر: البيـان والتبيـين جـ٢/ ١٥، والعقـد الفريـد جـ٢/ ١٣، وتاريـخ الطبرى جـ٣/ ١٥١-١٥٢، والكامل لابن الأثير جـ٢/ ١٤٦، وسيرة ابن هشام جـ٤/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى جـ٣/ ١٨٩-١٩٠، ودلائل النبوة للبيهقى جـ٧/ ١٧٩، والمعجم الكبير للطبرانى جـ١٨/ ٢٨.

الموضوع التاسع عشر

خطب صدر الإسلام

أولا : خطبة أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- :

يوم توفِّى الرسول ﷺ :

* دخل أبو بكر الصديق -رضوان الله عليه- على النبى ﷺ وهو مسجى بثوب، فكشف عنه الثوب، وقال:

بأبى أنت وأمى يا رسول الله طبت حيا، وطبت ميتا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشئون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنّا: فكمد، وإدناف، يتخالفان، ولا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا السلام، واذكرنا يا رسول الله عند ربك، ولنكن فى بالك، فلولا ما خلّفت من السكينة لم نقم لما خلّفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا، واحفظه فينا.

* ثم خرج إلى الناس وهم فى شديد غمراتهم، وعظيم سكراتهم، فخطب خطبة قال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدا عبد الله ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين، ثم قال: أيها الناس: من كان يعبد «محمدًا»، فإن «محمدًا» قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حىٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلق فيكم كتابه، وسنة نبيه، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتننّكم عن دينه .. اهـ[1].

ثانيا: خطبة أبى بكر -رضى الله عنه- **فى سقيفة بنى ساعدة:**

قال أبو جعفر الطبرىّ: فبعد أن حمد الله أبو بكر، واثنى عليه قال: إن الله بعث نبيه «محمدًا» ﷺ رسولا إلى خلقه، وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحّدوا، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عند الله شافعة، ولهم نافعة، وإنما هى حجر منحوت، وخشب منجور، ثم قرأ:

(١) انظر: زهر الآداب وثمر الألباب جـ١/ ٦٧-٦٩.

﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه مَا لا يَضُرُّهُم وَلا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّه ﴾ [يونس:١٨].

وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُم إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّه زُلفَىٰ ﴾ [الزمر:٣].

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على شدّة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم، وكلّ الناس لهم مخالف، فلم يستوحشوا لقلّة عددهم، فهم أوّل من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكر فضلهم فى الدين، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور.. اهـ[١].

ثالثا: خطبة لأبى بكر -رضى الله عنه- بعد توليته الخلافة:

قال -رضى الله عنه- بعد أن حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله:

أما بعد: فيا أيها الناس، إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى أُرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه -إن شاء الله-، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.. اهـ[٢].

رابعا: خطبة وعظيّة لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

عن عروة بن الزبير بن العوام (رضى الله عنهما- ت٩٣هـ) قال:

خطب عمر بن الخطاب، فقال: إن الله -سبحانه وتعالى- قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة عن غير مسألة منكم ولا رغبة منكم فيه إليه، فخلقكم الله -تبارك وتعالى- ولم تكونوا شيئا لنفسه

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى جـ٣/ ٢٢٠.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ٦/ ٣٠٥.

وعبادته، وكـان قادرا أن يجعلكم أهون خلقه عليـه، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم، ومنهـا نعم اختص الـله بها أهل دينكم، ثم صـارت تلك النعم: خـواصهـا وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم. اهـ[١].

خامسا: خطبة عثمان بن عفان -رضى الله عنه- بعد مبايعته بالخلافة:

* قال أبو جعفر الطبرى (ت ٣١٠هـ):

لـمَّا بايع أهل الشورى عثمان خرج، وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله ﷺ، فخطب النـاس: فحمـد الله وأثنى عليه، وصلى على النبـي ﷺ، وقال: إنكم فى دار قُلعة[٢]، وفـى بقيـة أعمار، فبادروا آجالكم بخير مـا تقدرون عليه، فلقد أُتيتم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والـباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا. اهـ[٣].

سادسا: خطبة على بن أبى طالب -رضى الله عنه- عند زواجه بـ «فاطمة» -رضى الله عنها:

قال: الحمد لله الذى قـرُب من حامديه، ودنا من سائليه، ووعد بالجـنة من يتقيه، وقطع بالنار عدد من يعصيه، أحمـده بجميع محامده وأياديه، وأشكره شكر من يعلم أنه خالقه وباديه ومصـوره ومنشيه ومميته ومحـييه، ومقربه، ومنجيه، ومشيبه، ومجازيه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه، وترضيه، وأشـهد أن نبينا «محمدًا» عبده ورسوله، صلاة تعزه، وتعليه، وتشرفه، وتجتبيه، أمـا بعد: فإن اجتماعنا مما قدره الله - تعالى- ورضيه، والنكاح مما أمر الله به، وهذا نبينا «مـحمد» ﷺ قد زوجنى ابنته «فاطمة» على صداق: أربعمائة درهم وثمانين درهما وقد رضيت به، وكفى بالله شهيدا. اهـ[٤].

سابعا: خطبة للحسين بن على -رضى الله عنهما- فى الحث على الجهاد:

قال - رضى الله عنه-: يا عـباد الله اتقوا الله، وكونوا من الدنيـا على حذر؛ فإن الدنيا لو بقـيت على أحد، أو بقى عليها أحد، فكانت للأنبياء أحق بالبقاء، غير أن الله - سبحانه وتعـالى- خلق الدنيا للفناء: فجديدها بال، ونعيمها مـضمحل، وسرورها مكفهرّ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون.. اهـ[٥].

-والله أعلم-

(١) انظر: تاريخ الطبرى جـ٤/ ٢١٦-٢١٨.
(٢) دار قُلْعَة: أى دار تحوّل وارتحال.
(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ٤/ ٢٤٣.
(٤) انظر: جمهرة خطب العرب جـ٣/ ٣٤٥.
(٥) انظر: جمهرة خطب العرب جـ٢/ ٥١.

الموضوع العشرون

خطب العصر الأموى

أولا: خطبة وعظية لعمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى-:

قال: يا أيها الناس، إنما أنتم أغراض تنتضل فيها المنايا، إنكم لا تؤتون نعمة إلا بفراق أخرى، وأىّ أكلة ليس معها غصة؟ وأى جرعة ليس معها شرقة؟ وإن أمس شاهد مقبول، وإن اليوم حبيب مودع، وهو يوشك الظعن، وإن غدا آت بما فيه، وأين يهرب من يتقلب فى يد طالبه إنه لا أقوى من طالب، ولا أضعف من مطلوب، وإنما سفر ستحلون عقد رحالكم فى غير هذه الدار، ثم أنتم فروع أصول قد مضت، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله. اهـ[١].

ثانيا: خطبة الحسن البصرى -رحمه الله تعالى-:

قال أبو عثمان الجاحظ: كان الحسن البصرى يقول: رحم الله امرأ كسب طيبا، وأنفق قصدا، وقدم فضلا، وجِّهوا هذه الفضول حيث وجهها الله، وضعوها حيث أمر الله؛ فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم، ويؤثرون بالفضل، ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها، فلا والله ما وجد ذو لب فيها فرحا، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التى جماعها الضلالة، وميعادها النار.

أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا أجنهم الليل فقيام على أطرافهم: يفترشون وجوههم، تجرى دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة سرتهم، وسألوا الله أن يتقبلها منهم، وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفر لهم.

يا ابن آدم إن كان لا يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك.

يا ابن آدم لا تعمل شيئا من الحق رياء، ولا تتركه حياء. اهـ[٢].

ثالثا: خطبة واصل بن عطاء الوعظية التى تجنب فيها حرف الراء:

وقال فيها: الحمد لله القديم بلا غاية، والباقى بلا نهاية، الذى علا فى دنوِّه، ودنا فى علوِّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعا، وعدَّله اصطناعا، فأحسن كل شىء خلقه، وتمّم

---

(١) انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى جـ٣/ ١٨٤، وانظر سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز تصنيف أبى الفرج بن الجوزى ص ٢٥٠.

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ جـ٣/ ١٣٥-١٣٦.

مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافعَ لقضائه تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، إلها تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنَزّه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول، ولاالأفهام، يُعصى فيحلُم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وأشهد شهادة حقٍّ، وقول صدق بإخلاص نية، وصحّة طويّة، إن نبينا «محمدا بن عبد الله» عبد الله ونبيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينة، والهدى، ودين الحق: فبلغ ملكته[1]، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضيا على سنته، موفيا على قصده، حتى أتاه اليقين، فصلى الله على نبينا «محمد» وعلى آله أفضل وأزكى، وأتم وأنمى، وأجلّ وأعلى، صلاة صلاّها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد مجيد.

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله، وأحضكم على ما يدنيكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها، وفواتن لذّاتها، وشهوات آمالها؛ فإنه متاع قليل، ومدّة إلى حين، وكل شيء منها يزول، فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبائلها، وأهلكت من جنح إليها، واعتمد عليها، أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد؟ قبضتهم بمخملها، وعضتهم بأنيابها، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، فتزودوا عافاكم الله فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.

جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظه وسعادته، وممّن يسمع القول فيتبع أحسنه، أولئك هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، وأعوذ بالله القويّ من الشيطان الغويّ، إن الله هو السميع العليم، نفعني الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحي المبين، وأعاذني الله وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلني وإياكم جنات النعيم. اهـ[2].

-والله أعلم-

---

(١) أي: رسالته.

(٢) انظر: جمهرة خطب العرب جـ٢/ ٥٠١-٥٠٣.

الموضوع
الواحد والعشرون

خطب العصر العباسى

أولا : خطبة وعظية للأوزاعى:

قال -رحمه الله تعالى- : أيها الناس تقوّوا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة، فإنكم فى دار الثواء فيها قليل، وأنتم مرتحلون وخلائف بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا آنفها، وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارا، وأمد أجساما، وأعظم آثارا، فنقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد، وأجسام كالعماد. فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا، فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون فى مساكن خاوية، وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص، فلا تكونوا أشباههم كمن خدعه الأمل، واغتروا بطول الأجل.. اهـ[(١)].

ثانيا : خطبة فى الوعظ لهارون الرشيد:

قال - رحمه الله تعالى- : الحمد لله على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمن به حقا، ونتوكل عليه مفوضين إليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا «محمداً» عبد الله ورسوله، بعثه الله على فترة من الرسل، وإدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة، فبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد فى الله حتى أتاه اليقين. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن فى التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزا بالجنة، ونجاة من النار. وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم الآزفة: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]

عباد الله: إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء فى الخبر: أن النبى ﷺ قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له» اهـ[(١)].

وقال الله - تعالى- : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف:١٥٦] وقال الله -تعالى- :﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]. اهـ[(٢)]

□ تم الكتاب والحمد لله رب العالمين □

---

(١) انظر: صفوة الصفوة لابن الجوزى جـ٤/ ٢٥٦-٢٥٧، وسير أعلام النبلاء للذهبى جـ٧/ ١١٧-١١٨، والبداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/ ١٢٢.

(١) رواه أنس -رضى الله عنه-: انظر: صحيح الجامع الصغير جـ٢/ ١٢٠٥: الحديث رقم/ ٧١٧٩.

(٢) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربّه جـ٤/ ١٠٢-١٠٤.



الخاتمة :

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف النبيين والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* أمَّا بعد :

ـ فقد تمَّ ولله الحمد والشكر تأليف كتاب :

وصايا ومواعظ

فى ضوء الكتاب والسنة

ـ أسأل الله أن ينفع به المسلمين والمسلمات.

ـ وصلِّ اللهمَّ على سيدنا «محمد» وعلى آله وصحبه أجمعين.

ـ اللهمَّ اغفر لى ولوالدىَّ ولجميع المسلمين آمين.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾.

المؤلف

أ.د / محمد محمد محمد سالم محيسن

غفر الله له ولوالديه وذريته والمسلمين

المدينة المنورة: الثلاثاء أول رمضان ١٤٠١هـ

أول يولية ١٩٨١م

الفهـرس

شيوخ المؤلف

حفظ المؤلف القرآن، وجوّده، وتلقى علوم القرآن، والقراءات، والعلوم الشرعية والعربية، عن خيرة علماء عصره.

وهم:

- حفظ القرآن الكريم على الشيخ: محمد السيد عَزَب.
- جود القرآن الكريم على كل من الشيخ: محمد محمود، والشيخ: محمود بكر.
- أخذ القراءات علميا عن كل من الشيخ: عبد الفتاح القاضى، والشيخ: محمود دعبيس.
- أخذ القراءات عمليا وتطبيقيا عن الشيخ: عامر السيد عثمان.
- أخذ رسم القرآن وضبطه عن الشيخ: أحمد أبو زيت حار.
- أخذ عدّ آي القرآن عن الشيخ: محمود دعبيس.
- أخذ توجيه القراءات عن الشيخ: محمود دعبيس.
- أخذ الفقه الإسلامى عن كل من الشيخ: أحمد عبد الرحيم والشيخ: محمود عبد الدايم.
- أخذ أصول الفقه عن الشيخ: يس سويلَم.
- أخذ التوحيد عن الشيخ: عبد العزيز عبيد.
- أخذ المنطق عن الشيخ: صالح محمد شرف.
- أخذ تاريخ التشريع الإسلامى عن الشيخ: أنيس عبادة.
- أخذ التفسير عن كل من الشيخ: خميس محمد هيبة، والشيخ: كامل محمد حسن.
- أخذ الحديث وعلومه عن الشيخ: محمود عبد الغفار.
- أخذ دراسة الكتب الإسلامية عن الشيخ: محمد الغزالى.
- أخذ النحو والصرف عن كل من الشيخ: خميس محمد هيبة، والشيخ: محمود حبلص، والشيخ: محمود مكّاوى.
- أخذ علوم البلاغة عن كل من الشيخ: محمود دعبيس، والشيخ: محمد بحيرى.
- أخذ فقه اللغة عن الدكتور حسن ظاظا.
- أخذ أصول اللغة عن الدكتور حسن السيد عون.
- أخذ مناهج البحث العلمى عن الدكتور عبد المجيد عابدين.
- أشرف عليه فى رسالة الماجستير الدكتور أحمد مكى الأنصارى.
- أشرف عليه فى رسالة الدكتوراه الدكتور عبد المجيد عابدين، أكرمه الله.

المؤلــف

– ولد بقرية الروضة، مركز فاقوس، محافظة الشرقية بمصر، سنة ١٩٢٩ ميلادية.

– حفظ القرآن الكريم، وجوّده في بداية حياته.

– التحق بالأزهر الشريف بالقاهرة، ودرس: العلوم الشرعية، والإسلامية، والعربية، والقراءات القرآنية المتواترة: السبع والعشر، والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم مثل: رسم القرآن، وضبط القرآن، وعدّ آى القرآن.

– **حصل على:** التخصص فى القراءات، وعلوم القرآن، والليسانس فى الدراسات الإسلامية والعربية، والماجستير فى الآداب العربية، والدكتوراه فى الآداب العربية.

النشاط العلمى العملى:

أولا: عيّن مدرسًا بالأزهر عام ١٩٥٢م، وقام بتدريس: تجويد القرآن الكريم، القراءات القرآنية، وتوجيهها، الفقه الإسلامى: العبادات، تاريخ التشريع الإسلامى، تفسير القرآن الكريم، علوم القرآن الكريم، طبقات المفسرين، ومناهجهم، النحو العربى، تصريف الأسماء والأفعال، البلاغة العربية.

ثــانيـًا: عين عضواً بلجنة تصحيح المصاحف بالأزهر سنة ١٩٥٦م.

ثــالثـًا: عين عضواً ضمن اللجنة العلمية التى تشرف على تسجيل القرآن الكريم بالإذاعة المصرية سنة ١٩٦٥م.

رابعــًا: ناقش وأشرف على أكثر من مائة رسالة علمية (ماجستير، ودكتوراه).

خامسًا: شارك فى ترقية عدد من الأساتذة إلى أستاذ مساعد، وأستاذ.

سادسًا: له أحاديث دينية بالإذاعة السودانية تزيد على مائة حديث.

سابعًا: له أحاديث دينية أسبوعية بإذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية تزيد على ألف حديث.

ثـامـنًا: انتدب للتدريس بالسودان بجامعتى الخرطوم والجامعة الإسلامية بأم درمان، وبالمملكة العربية السعودية بجامعتى الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وأبها، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الإنتاج العلمى:

بعون من الله – تعالى – صنّف أكثر من تسعين كتابًا فى جوانب متعددة:

١ – القراءات والتجويد.

٢ – التفسير وعلوم القرآن.

٣ – الفقه الإسلامى والعبادات.

٤ – المعاملات.

٥ – الإسلاميات والفتاوى.

٦ – السيرة.

٧ – النحو والصرف.

٨ – اللغويات.

٩ – الغيبيات والمأثورات.

١٠ – الدعوة.

١١ – التراجم.

مذهبه الفقهى : الشافعى.

عقيدته : أهل السنة والجماعة.

منهجه فى الحياة : كان منهجه فى الحياة التمسك بالكتاب والسنة ما استطاع لذلك سبيلا.

توفى : يوم السبت الموافق: الحادى عشر من صفر ١٤٢٢هـ – الخامس من مايو ٢٠٠١م.

دعاؤه : اللهم إنى أسالك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

مصنفات المؤلف

القراءات والتجويد:

١ - إرشاد الطالبين إلى ضبط الكتاب المبين.
٢ - الإرشادات الجليّة فى القراءات السبع من طريق الشاطبية «ثلاثة أجزاء».
٣ - الإفصاح عما زادته الدرة على الشاطبية «جزءان».
٤ - التذكرة فى القراءات الثلاث وتوجيهاتها من طريق الدرة «جزءان».
٥ - التبصرة عما زادته الطيبة على الشاطبية والدرة.
٦ - التوضيحات الجلية - شرح المنظومة السخاوية.
٧ - التوضيحات الجلية فى القراءات السبع وتوجيهاتها من طريق الشاطبية.
٨ - الرائد في تجويد القرآن.
٩ - الرسالة البهية فى قراءة أبى عمر الدورى.
١٠ - الفتح الربانى فى علاقة القراءات بالرسم العثمانى.
١١ - القراءات وأثرها فى علوم العربية «جزءان».
١٢ - القول السديد فى الدفاع عن قراءات القرآن المجيد فى ضوء الكتاب والسنّة.
١٣ - الكامل فى القراءات العشر المتواترة من طريقَى الشاطبية والدرة.
١٤ - المبسوط فى القراءات الشاذة «جزءان».
١٥ - المجتبى فى تخريج قراءة أبى عمر الدورى.
١٦ - المختار - شرح الشاطبية فى القراءات السبع مع توجيه القراءات.
١٧ - المستنير فى تخريج القراءات من حيث اللغة، والإعراب، والتفسير «ثلاثة أجزاء».
١٨ - المصباح فى القراءات السبع وتوجيهها من طريق الشاطبية.
١٩ - المغنى فى توجيه القراءات العشر المتواترة «ثلاثة أجزاء».
٢٠ - المهذب فى القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر «جزءان».
٢١ - النجوم الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة وتوجيهها من طريقى الشاطبية والدرة.
٢٢ - الهادى - شرح طيبة النشر فى القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها «ثلاثة أجزاء».
٢٣ - الأشباه والنظائر فى توجيه القراءات.
٢٤ - تهذيب إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر..
٢٥ - شرح تحفة الأطفال والجزرية لبيان الأحكام التجويدية.
٢٦ - شرح المنظومة السخاوية فى متشابهات القراءات القرآنية.
٢٧ - شرح طيبة النشر فى القراءات العشر.
٢٨ - فى رحاب القراءات.
٢٩ - مرشد المريد إلى علم التجويد.
٣٠ - القراءات السبع الميسرة.

التفسير وعلوم القرآن :

١ - الهادى إلى تفسير غريب القرآن.
٢ - إعجاز القرآن.
٣ - إعجاز وبلاغة القرآن.
٤ - أعلام حفَّاظ القرآن الكريم (سلسلة أحاديث).
٥ - البرهان فى إعجاز وبلاغة القرآن.
٦ - الروايات الصحيحة فى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.
٧ - الكشف عن أسرار ترتيب القرآن.
٨ - اللؤلؤ المنثور فى تفسير القرآن بالمأثور «ستة أجزاء».
٩ - تاريخ القرآن.
١٠ - روائع البيان فى إعجاز القرآن.
١١ - طبقات المفسرين ومناهجهم.
١٢ - فتح الرحمن الرحيم فى تفسير القرآن الكريم (أربعة عشر جزءاً).
١٣ - فتح الملك المنان فى علوم القرآن «ثلاثة أجزاء».
١٤ - فتح الرحمن فى أسباب نزول القرآن.
١٥ - فضل قراءة بعض آيات وسور من القرآن مؤيداً بسنة النبى ﷺ.
١٦ - فى رحاب القرآن الكريم «جزءان».
١٧ - فى رياض القرآن (سلسلة أحاديث).
١٨ - معجم حفاظ القرآن الكريم عبر التاريخ «جزءان».
١٩ - معجم علوم القرآن «ثلاثة أجزاء».
٢٠ - من وصايا القرآن الكريم.

فقه وعبادات :

١ - أثر العبادات فى تربية المسلم.
٢ - أحكام الطهارة والصلاة فى ضوء الكتاب والسنَّة «جزءان».
٣ - الإرشادات إلى أعمال الطاعات.
٤ - الترغيب فى الأعمال المشروعة فى ضوء الكتاب والسنَّة.
٥ - الحج والعمرة وأثرهما فى تربية المسلم وأحكام قصر الصلاة وجمعها فى السفر.
٦ - الحدود فى الإسلام فى ضوء الكتاب والسنَّة والكشف عن حكمة التشريع الإسلامى من إقامتها.
٧ - الصلاة فى ضوء الكتاب والسنَّة وأثرها فى تربية المسلم.
٨ - الصيام أحكامه وآدابه وفضائله وأثره فى تربية المسلم.
٩ - فقه الكتاب والسنَّة.
١٠ - العبادات وأثرها فى تربية المسلم فى ضوء الكتاب والسنَّة.
١١ - الفضائل من الأعمال التى تقرب من الله تعالى.
١٢ - المحرمات فى ضوء الكتاب والسنَّة.
١٣ - تأملات فى أثر العبادات، وأعمال الطاعات فى تربية المسلمين والمسلمات.
١٤ - أركان الإسلام.

معاملات :

١ - الأسرة السعيدة فى ظل تعاليم الإسلام.
٢ - الحق أحق أن يُتّبع.
٣ - حقوق الإنسان فى الإسلام.
٤ - حكمة التشريع الإسلامى.
٥ - نظام الأسرة فى الإسلام.

تراجـم :

١ - أبو عبيد القاسم بن سلام، حياته وآثاره اللغوية.
٢ - أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى، حياته وآثاره.
٣ - تراجم لبعض علماء القراءات.

إسلاميات وفـتـاوى :

١ - أنت تسأل والإسلام يجيب.
٢ - الثقافة الإسلامية فى ضوء الكتاب والسنّة.
٣ - السراج المنير فى الثقافة الإسلامية.
٤ - فى رحاب الإسلام.

سـيرة :

١ - الأنوار الساطعة على دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ، وأخلاقه الكريمة الفاضلة فى ضوء الكتاب والسنّة.
٢ - الخصائص المحمدية والمعجزات النبوية فى ضوء الكتاب والسنّة.

نحـو وصـرف :

١ - النحو الميسّر.
٢ - تصريف الأفعال والأسماء (فى ضوء أساليب القرآن).
٣ - توضيح النحو.
٤ - معجم قواعد النحو، وحروف المعانى.

اللغـويات :

١ - أحكام الوقف والوصل فى العربية.
٢ - الكشف عن أحكام الوقف والوصل فى العربية.
٣ - المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية «ثلاثة أجزاء».

الغيبيات والمأثورات :

١ - حديث الروح فى ضوء الكتاب والسنّة.
٢ - الأدعية المأثورة عن الهادى البشير ﷺ.
٣ - التبصرة فى أحوال القبور، والدار الآخرة.
٤ - الدعاء المستجاب فى ضوء الكتاب والسنّة.
٥ - موضوعات إسلامية فى ضوء الكتاب والسنّة «جزءان».

الدعـوة :

١ - أحاديث دينية وثقافية فى ضوء الكتاب والسنّة.
٢ - الترغيب والتحذير فى ضوء الكتاب والسنّة.
٣ - الدعوة إلى وجوب التمسك بتعاليم الإسلام.
٤ - ديوان خطب الجمعة وفقا لتعاليم الإسلام.
٥ - سبيل الرشاد فى ضوء الكتاب والسنّة.
٦ - فى رحاب السنّة المطهرة، سراج لكل واعظ ومرشد وخطيب.
٧ - منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله.
٨ - وصايا ومواعظ فى ضوء الكتاب والسنّة.

التحقيق والتصحيح :

١ - النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (تحقيق).
٢ - شرح الطيبة لابن الناظم (تحقيق).
٣ - المغنى لابن قدامة (تحقيق).
٤ - حاشية العلامة الصبان على تفسير الجلالين (٤ أجزاء) (تصحيح).
٥ - نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار (تصحيح).
٦ - إسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى ﷺ وفضائل أهل بيته الطاهرين (تصحيح).

كلمة الناشـر

اقرأ الحمد لله الذى أضاء بها الكون، فقال - تعالى - :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ القائل :

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»

وبعد ...

فإن خير الأعمال وأجلّها عمل يصل الإنسان بربه، فينال به الرضا والغفران، كما قال - عز وجل - : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وانطلاقًا من هذا الوعد كانت «دار محيسن للطباعة والنشر والتوزيع» برًا بصاحب هذا الاسم - رحمه الله تعالى -.

قال ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، وعلمٍ يُنتفع به، وولدٍ صالحٍ يدعو له».

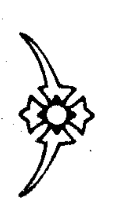
هدفنا ● **أن نصل إلى عقل وقلب ووجدان القارئ المسلم.**

● **أن نساهم فى نشر العلوم الدينية بصورة مشرقة.**

● **أن نساعد فى إعداد أجيال مسلمة تتفهم حقيقة دينها.**

● أن نتابع نشرمؤلفات **الأستاذ الدكتورا محمد سالم محيسن** - رحمه الله -.

وسيلتنا **استخدام التقنيات الحديثة فى الطباعة والنشر.**



هذه أهدافنا، وهذا طريقنا، والاستمرار والانتشار سيكونان بفضل الله - تعالى - ثم بفضلك أيها القارئ العزيز.